دهاليز الكتابة

حاتم إبراهيم سلامة

سلامة، حاتم.

دهاليز الكتابة. تأليف / حاتم سلامة

التصنيف: كتاب

٢١ سم ، ٢٢٧ ص

تدمك: ٤-٦٠-٦٦٤٣-٩٧٧-٩٧٨

التدقيق اللغوي والإخراج الفني وتصميم الغلاف:

فريق يوريكا لخدمات النشر

eureka4publishing@gmail.com

01288627690

جميع الحقوق محفوظة و يحظر طبع أو تصوير أو تخزين أى جزء من الكتاب بأية وسيلة من وسائل تخزين المعلومات إلا بإذن كتابى صريح من الناشر

رقم الإيداع : ٢٠٠٠٥

إذا لم يكن في يدي صولجان..

أليس في يدي قلم؟!

فولتير

(إذا أردت أن تعرف احترام أمة، فاعرف أولا قيمة الكاتب فيها، فإذا وجدت الكاتب في مؤخرة الصفوف، فاعلم أن هذه أمة في مؤخرة دول العالم، فكم رأينا من جيوش تُعلن الحرب على قلم، فتسقط القلاع وتصمد الأقلام..)

مصطفى أمين

مقدمة

يسألني كثير من الشباب الراغبون في الكتابة والعاشقون للقلم: نريد أن نكون كتابًا فكيف السبيل إلى ذلك؟ وكيف نستطيع أن نسخر القلم ليعبر عما في نفوسنا؟ إننا نحبه ونعشق التعبير به، لكننا نراه عصيًا علينا ولا نقوى على طرح مداده في المكان الذي نريد أن يشرح خوالجنا، لا نستطيع السيطرة عليه أو تسخيره في المكان المحدد له، لا نعرف كيف نسترسل في خواطرنا، ولا نفقه في تحسينه ، ليكون على تلك الصورة المرجوة، التي يستحسنها الناس وتُرضي أذواقهم.

يطالبني الكثيرون ممن يبتدئون رحلتهم مع القلم، ببعض المهارات التي تُيسر عليهم هذا الطريق، وبعض الأسرار التي تكشف لهم ما خفي عليهم فيه، فتُسهل رغبتهم وتعينهم على غايتهم حتى يمتطوا صهوة هذا القلم، ليكون رائدهم فيما يريدون من تعبير، وهاديهم فيما يريدون من أفكار وغايات.

ولعل هذه التساؤلات وهذا الطلب من جماهير الشباب والشابات، قد وجد هوى في نفسي، ودفعني أن أضع هذه الورقات، التي تحمل بعض خبرتي المتواضعة في هذا الميدان، الذي قضيت فيه سنينًا طويلة من عمري مصاحبًا للقلم،

واستطعت أن أكتب مئات المقالات، وما يزيد عن عشرة كتب، أسأل الله أن تكون نافعة، وتقدم الجديد الذي يخدم الدين، ويدعم الثقافة، ويُغذي الفكر والمعرفة.

وقد حاولت أن أصف وأجسد تلك المراحل التي مررت بها كتجربة واقعية، تُلقي بظلالها وتشير بقوة إلى المسؤولية الكبيرة التي يتحملها كل من أراد أن يكون كاتبًا، فهي ليست مجرد نصائح ووصفات سحرية لكل من خطر بباله أن يكون كاتبًا، وبمجرد اتباعها يكون أعظم الكتاب، وإنما هي خطوات تخاطب أولئك الذين يجدون في أنفسهم ميلا للقلم، وحبًا في الكتابة، ورغبة ملحة وإقبالا على التدوين والتسجيل والمذاكرة والمواصلة، والاستمرار والحفظ والتطبيق، والغوص في اللغة وبحرها الواسع، وعباراتها العزبة وأسلوبها الرائق الفائق.. هؤلاء وحدهم من ترشدهم هذه الصفحات، وتوفر عليهم كثيرًا من التفكير والمشقة التي يجدونها في ميدان الكتابة، وفي طريقهم التي يشقونها في عالم القلم والإبداع الكتابي.!

فكل من وجد في نفسه حنينا إلى عالم الكتابة، فإن هذه الصفحات هي رائدته ومرشدته، وهي التي يجد فيها بُغيته للكفاءة الكتابية، كما أنها تُفيد كل من أراد أن يعرف أسرار الكتابة من المدربين، والمعلمين الذين يحاضرون في هذا المجال، ويخرج من تحت أيديهم أجيال من الكتاب، بل يهتدي بها كل

والد ومربي وجد في نفوس أبنائه ميلا للكتابة، فبدلا من أن تسيطر عليه الحيرة ،كيف يُنمي فيهم هذه الموهبة ويضخم حبها في نفوسهم، فما عليه إلا أن يقرأ هذه الصفحات، التي تعطيه الكثير من فنون التعامل مع القلم، يُلقنها لأبنائه ويدربهم عليها، ليجد بعد قليل في بيته وبين يديه كُتابًا محترفين مبدعين.

وكِتابنا هذا يركز على حِرفية الأسلوب وطرق الكتابة، وجودة التعبير، ومهارة الإنشاء، واللمسات الهامة التي يعيها الكاتب في مهمته، ولا يتطرق إلى تأليف الكتب وعمل الأبحاث، لأنني أهتم ابتداء بأن يتعلم الراغب في الكتابة كيف يكتب؟ فهي نصائح لطيفة، ومسامرة خفيفة، وأفكار هادفة، تحاول أن تقف بالهاوي والموهوب على بعض الإشارات والخطوات المهمة، واللمسات المباشرة، التي تمكنه من معرفة مساره إلى كتابة راشدة واعية جيدة مكتملة ناضجة مبدعة، فتوفر عليه كثيرًا من الجهد والوقت في طلبه وغايته ومبتغاه.

حاتم إبراهيم سلامة

خطورة القلم

ما أعجب شأن القلم، يشرب ظلمة ويلفظ نورًا!

يقول أحمد مطر: "جس الطبيب خافقي..

وقال لي: هل هنا الألم؟ قلت له: نعم

فشق بالمشرط جيب معطفي وأخرج القلم؟

هز الطبيب رأسه ومال وابتسم..

وقال لي: ليس سوى قلم.

فقلت: لا يا سيدي، هذا يدٌ وفم.. رصاصةٌ ودم.. وتهمةٌ سافرةٌ.. تمشي بلا قدم!"

ها هو القلم برغم حجمه الضئيل الصغير، وشكله الهين، وصورته الضعيفة، إلا أنه كبير عظيم، وأمره جلل خطير، إنه القلم الذي نستطيع به أن نعبر عن مشاعرنا وما في دواخلنا، وكل ما يعتمل في نفوسنا من أشواق وأحاسيس ورغبات، وما في نفوسنا من هواجس وخواطر، هذا هو القلم الهين الضعيف الضئيل، إنه أداة العلم والنور والهداية والثقافة والمعرفة، يُنير العقول، ويجلي الوعي، وينشئ المعرفة.. به بناء الحضارات،

ونهضة الأمم، ووعي الجماهير، وعن طريقه حُمل إلينا تاريخ الغابرين من الأمم السابقة، ونُقلت إلينا أحداثهم ومواقفهم وتجاربهم، بل نُقلت إلينا معارفهم وعلومهم التي استكملنا عليها وبنينا فوقها طريق النهضة والحضارة، فهو حلقة الوصل بين الدهور والعصور والأجيال، ضعيف لكنه قوي، لا يستغني عنه الإنسان.

أقسم الله تعالى به في القرآن الكريم، وجعل له سورة باسمه، والله سبحانه لا يقسم بشيء إلا ليدلل على أهميته ومكانته، قال تعالى: (ن، والقلم وما يسطرون)،كما كانت هذه المكانة الكبيرة، حينما كان لفظه أول ما نزل من القرآن الكريم، والوحي المعظم، حيث قال تعالى: (اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم)

وهناك من جعل مداد العلماء كدم الشهداء، وكلاهما فيه الخير وله الفضل، وهو ما يشير إلى أهمية القلم وعظيم أثر الكلمة..

ويقول صلى الله عليه وسلم: " إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، قال: يا رب، ما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة "رواه أبو داوود

ويتبدى هذا الإيمان النبوي بالقلم وخطورته وأهميته، في فداء أسرى بدر، حينما جعل فداء الرجل من المشركين، أن يعلم

عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة.

ومما قيل في وصفه: «القلم أصم، إلا أنه يشعر، ويسمع آلام البشر ويعبر عنها، وتجده أخرسًا، لكنه يقدر على الافصاح بالشكوى، تراه جمادًا، لكنه يعلم الفحوى والمغزى، هو الصاحب وقت الكربة، والوطن في الغربة، هو دليل العقل والمروءة، به تتحطم صحائف الأشرار، وبه تعلو صحائف الأخيار.»

"وللقلم مكانة مرموقة، ومنزلة عالية، ومقام رفيع، يوضحه أبو الفتح البستي في قوله:

قوم إذا عزموا عداوة حاسد ** سفكوا الدِّما بأسنّة الأقلام

وقال في نفس المعنى:

إذا أقسم الأبطال يوما بسيفهم ** وعدوه مما يكسب المجد والكرم

كفى قلم الكتاب عزا ورفعة ** مدى الدهر أن الله أقسم بالقلم

ويؤكدها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بقوله: (عقول الناس مدونة في أطراف أقلامهم).

وقال ابن أبي دَوُادَ: (القلم سفير العقل ورسوله الأنبل، ولسانه

الأطول، وترجمانه الأفضل).ويقول ابن المقفع: (القلم بريد القلب يخبر بالخبر وينظر بلا نظر)، وهذا فولتير، يعد القلم أهم من التاج حيث يقول: (لا يضرني أن ليس على رأسي تاج، مادام في يدي قلم)، أما فيكتور هيجو فاعتبر (القلم.. مرآة القلب وترجمان العقل) وجعل الشريف الرضي التقدير للقلم عن السيف بوصفه:

ليس السيوف عن الأقلام غانية * الفري للسيف والتقدير للقلم**

«أي لا تستغني السيوف عن الأقلام، فالسيف يقطع والقلم يقدّر ويبصّر»

والقلم من وجهة نظر عبد الحميد الكاتب: (شجرة ثمرتها الألفاظ).

ويقول د. علي الوردي: (حين يتكاتف السيف والقلم على أمر، فلابد أن يتم ذلك الأمر، عاجلاً أو أجلاً).

وقيل في المثل: (القلم يجرح غالبًا أكثر من السيف)

وقيل: ولضربة من كاتب ببنانه ** أمضى وأقطع من دقيق حسام

قوم إذا عزموا عداوة حاسد ** سفكوا الدما بأسنة الأقلام

وقال أعرابي: « الكتابة صناعة شريفة، تجلس الحقير مجالس الملوك، وهي آلة قانونية تحملها آلة جسمانية، تضعف بالترك وتقوى بالإدمان»

وقال بن المقفع: « الملوك أحوج إلى الكتاب من الكتاب إلى الملوك»

وقال آخر: « لو أن في الصناعات صناعة مربوبة لكانت الكتابة ربًا لكل صناعة»

وقال العقاد: « في كل كاتب شيء من طبيعة النبوة، لأنه يحمل رسالة خاصة من لدن الحياة إلى إخوانه في الحياة، ولهذا كان لابد للكاتب من هبة خارقة يحس بها ما لا يحسه سواد الناس، ويفهم بها ما لا يفهمون من أسرار هذه الدنيا، وعجائب الغيب والشهادة»

ويقول جبران: « من نقب وبحث ثم كتب فهو ربع كاتب، ومن رأى ووصف فهو نصف كاتب، ومن شعر وأبلغ الناس شعوره فهو الكاتب كله»

وقالت كاترين تينان: « لو كانت الكتابة خمرًا لكنت أكبر عربيدة على سطح الأرض، فلا يمكنني أن أمتنع عنها، لأنها ملأت حياتي بالسعادة والحيوية»

وقالت جاذبية صدقي: « إن الكتابة متعة كبيرة ولكن ثمنها غال، كرات الأعصاب الحمراء»

وقال كلثون: « للكتابة ثلاث مصائب: إن تكتب شيئا يستحق النشر، وإن تجد رجالًا أمناء ينشرونه لك، وأن تجد القارئ اللبيب غير المتحيز»

وقال مصطفى أمين: « أنا أعتبر الكتابة كالتنفس»

وللقلم هيبة ووقار، وتقدير واحترام وحصانة وإجلال، يجب ان يتعامل معه على أساسها حيث ساوى شكسبير (مداد قلم الكاتب، على أنه مقدس مثل دم الشهيد)، وجعل سهل بن هارون القلم بمثابة (أنف الضمير، إذا رعف أعلن أسراره، وأبان آثاره)، لأننا بالقلم نعبر عن مشاعرنا وأحاسيسنا، وكل ما يجول بخواطرنا ويدور في عقولنا من أفكار، وتخفيه نفوسنا من أفراح وأحزان، لذلك (فالأقلام مطايا الأذهان) كما عرفها العنابي، والذي أوصى دائما بأننا من الضروري عندما نفكر يكون تفكيرنا على الورق، لأن من يفكر على الورق يمسك القلم، وبالتالي ينجح أكثر من غيره بإذن الله، لأن بالقلم وثق تفكيره وقيده وحفظه من الإهمال والضياع أو النسيان.!

وها هم السالفون الراحلون، مهما تباعدت عنا أزمانهم، إلا أن ما خطوه بأقلامهم، مازال قائمًا بيننا منتصبًا حاضرًا؛ يحكي

عنهم ويشرح حالهم واهتمامهم، فمنهم من جعل من قلمه سبيلا يمده بالحسنات، وبريدًا للرحمات وطريقًا يزيد من رصيده الذي يتعاظم كل يوم بين يدي خالقه، ومنهم كذلك تلك الصورة المقابلة، لهذا الذي جعل من قلمه منصة للقبح والنفاق والسوء، فهي ترميه كل يوم باللعنات، وتصب عليه من جحيم السيئات، فيسفل مقامه، ويهون ذكره، ويندثر شرفه.. ألا إن القلم خطير عظيم، على صاحبه وعلى الناس من حوله، فلندرك هذه الخطورة، وندرك أمانة الكلمة التي يخطها القلم، ونراعي فيها ضمائرنا وديننا وإنسانيتنا.

ولله در القائل:

الخط يبقى زمنًا بعد كاتبه ** وكاتب الخط تحت الأرض مدفون

وما من كاتب إلا سيفنى ** ويبقى الدهر ما كتبت يداه

فلا تكتب بخطك غير شيء ** يسرك في القيامة أن تراه

يقول الكاتب الكبير مصطفى أمين: (إذا أردت أن تعرف احترام أمة، فاعرف أولا قيمة الكاتب فيها، فإذا وجدت الكاتب في مؤخرة الصفوف، فاعلم أن هذه أمة في مؤخرة دول العالم، فكم رأينا من جيوش تُعلن الحرب على قلم، فتسقط القلاع وتصمد الأقلام)

لقد سمعنا عن كتب وروايات كان لها تأثيرها القوي العظيم في مجتمعاتها، وقرأنا عن أقلام تسببت بما كتبت في انقلابات كبيرة، وثورات عارمة، بل وحروب دامية، ليكون ذلك كله شاهدًا أكيدًا على خطورة القلم وعِظم أمره.

لقد كان فولتير مُلهم الثورة الفرنسية، وباعث روحها في نفوس الفرنسيين بكتاباته الحرة التي حاربت الظلم، وناوأت الجور، وأطاحت بكل الأصنام التي وضعتها السلطة والشعب، ثار فولتير على كل شيء، وسخر من كل شيء، لقد كان من النبلاء، ولكنه دخل في باكر صباه في مشكلات مع السلطة، وهاجم الحكومة والكنيسة بحماس شديد، مما أدى لدخوله السجن عدة مرات ثم نفيه، لقد كتب أول أعماله حينما كان مسجونًا في الباستيل لمدة أحد عشر شهرًا، بسبب تطاوله وسخريته من الوصي على العرش، وكتب فولتير تسع وتسعون مؤلفًا، تنوعت بين الشعر والمسرحيات والروايات والمقالات والكتب، هاجم فيها الأساليب الاجتماعية والسياسية، ونقد التقاليد والعادات نقدًا لاذعًا، وكان يقضي حوالي ثمانية عشر ساعة في الكتابة يوميًا، وتم حظر وحرق كثير من أعماله التي أزعجت فرنسا.. وكان يرى أن إبقاء الشعب في محيط من الجهل، ليس إلا حيلة يلجأ إليها الملوك للإبقاء على تسلطهم السياسي، ويلجأ إليها رجال الدين، لإدامة تسلطهم الفكري.

لقد استطاع فولتير أن يصدر العشرات من الرسائل الحرة بأسماء مستعارة، كي ينجو من ملاحقة الجبابرة، وكانت هذه الرسائل تحطم الأساطير، وتحمل على الطغيان الحكومي والكنسي! وأمام هذه النفس الحرة، والقلم الثائر، لقي فولتير مقاومة عنيفة في دعوته إلى الحرية، وخاصة حرية العقيدة، لأن الكنيسة الكاثوليكية، كانت تحرض الحكومة الفرنسية، على إيذاء غير الكاثوليك.

يحكى عن (لويس السادس عشر) ملك فرنسا أيام الثورة الفرنسية، أنه أطل من نافذة سجنه في باريس، فوجد الشعب حاملًا نعش فولتير الذي نقلوه من قبره الوضيع، يريدون دفنه في ضريح العظماء، في احتفال مهيب، فقال الملك المخلوع، وهو يشير إلى النعش (كل ما أنا فيه من المصائب، جاءني من هذا الرجل!)

وكان لويس صادقًا في هذا القول، حيث إن الثورة الفرنسية، وهي أجل عمل إنساني، سجلت فيه حقوق الإنسان في فرنسا لأول مرة، كانت مصيبة على ملوك أوروبا جميعهم، لأنها فتحت عهدًا جديدًا للحكم الجمهوري، ما كان كل هذا ليحدث، لولا الطائفة النيرة من الأدباء الفرنسيين، والذين كان فولتير في مقدمتهم.

ويصف المنفلوطي نضال فولتير فيقول: «تقدم وحده وأثار

حربا عوانا على هذا العالم المؤلف من تلك القرى المختلفة.. أتدرون ما كان سلاحه؟ كان له سلاح غير تلك الأداة التي تجاري العاصفة في هبوبها، وتسبق الصاعقة في انقضاضها، ما كان له سلاح غير القلم، فبالقلم حارب، وبالقلم انتصر»

لقد كانت العرب قديما تقول العرب: (القلم بريد القلب) و(عقول الرجال تحت أقلامها) و(القلم راقد في الأفئدة مستيقظ في الأفواه)

وقيل: (القلم أصم يسمع النجوى. وأخرس يفصح بالدعوى. وجاهل يعلم الفحوى)

ويقول ابن القيم: «أقسم بالكتاب وآلته، وهو القلم الذي هو إحدى آياته، وأول مخلوقاته، الذي جرى به قدره وشرعه، وكتب به الوحي وقيد به الدين، وأثبتت به الشريعة، وحفظت به العلوم، وقامت به مصالح العباد في المعاش والمعاد، فوطدت به الممالك، وأمنت به السبل والمسالك، وأقام في الناس أبلغ خطيب، وأفصحه وأنفعه لهم وأنصحه، وواعظا تشفي مواعظه القلوب من السقم وطبيبا يبرئ بإذنه من أنواع الألم»

ويقول كذلك: «تأملْ حالك وقد أمسكت بالقلم، وهو جماد، ووضعته على القرطاس وهو جماد، فتولد من بينهما أنواع الحكم، وأصناف العلوم وفنون المراسلات والخطب، والنظم

والنثر، وجوابات المسائل، فمن الذي أجرى تَلَكَ المعاني على قلبك، ورسمها في ذهنك، ثم أجرى العبارات الدالة على لسانك، ثم حرك بها بنانك حتى صارت نقشا عجيبا، معناه أعجب من صورته، فتقضي به مآربك، وتبلغ به حاجة في صدرك، وترسله إلى الأقطار النائية والجهات المتباعدة، فيقوم مقامك، ويترجم عنك، ويتكلم على لسانك، ويقوم مقام رسولك، ويجدي عليك ما لا يجدي من ترسله، سوى من علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم؟»

لقد أدركنا خطورة القلم حينما رأينا كتبة السلطان، يخرج أحدهم على الناس صبيحة الهزيمة النكراء، ليخدر الجماهير بسطوره وجمله الرنانة الخادعة، ومنطقه الخادع، ليوهمها أن الأمة لم تنهزم، وإنما انتصرت، لأن زعيمها الخالد موجود وقائم في مكانه، يمارس سلطاته وحكمه.. وهكذا عرف القلم طريقه مع هؤلاء، ليظل أداة يمتهنونها للخيانة والخديعة والمكر والغدر، وخدمة المصالح والأهواء، جعلوا من أقلامهم حربًا على الحق، وعدوة للحقيقة، فلا تنطق إلا بالزيف، ولا تكتب إلا بالباطل، ومن هنا كانت خطورة القلم، وخطورة المداد، على الحاضر والمستقبل، كما تبدت خطورته علينا مما افتراه الكتاب في الماضي، فزيفوا التاريخ، وطمسوا الحقائق، وتسببوا في غيبة الوعي، وإخماد الفكر، وجلب المآسي والويلات، للمجتمعات

وقيام كل صور التخلف والتراجع، والتقهقر للوراء، حينما أسهموا في تغييب الحقيقة.!

وكم يحزن المرء حينما يرى أمامه اليوم من يروج للخطأ، ويؤمن بالكذب، ويتعصب للزيف، ويدرك مع هذا الحزن الكثيف، أن السبب في هذا التشويه، وهذا الخلط الفادح، لا يقف وراءه، ولم يتسبب فيه، إلا أقلام غاشة منافقة كاذبة، ساعدتها الظروف والأحداث أن تتمكن أقلامها من خطاب الناس، فافترت هذا الإفك الذي تشربته العقول وتربت عليه.

بالقلم تستطيع أن تقلب الحق إلى باطل، والباطل إلى حق، وتستطيع أن تقلب النصر إلى هزيمة، والهزيمة إلى نصر، تماما كما فعل رمسيس الثاني حينما عاد من موقعة قادش، وادعى النصر على الحيثيين، وقام بنقش تفاصيل الموقعة على جدران المعابد، بينما هو كاذب لم ينتصر، ولم يحقق إلا الصلح مع عدوه.

وهذا نابليون، لكي يخمد جهاد المصريين، ويهدئ الشعب الثائر، يلجأ للقلم والمكتوب، كمحاولة لخداعهم وتزييف نواياه الاستعمارية الغاشمة، فوزع منشورات كرر فيها عبارات: أنه محب للمسلمين ولنبي المسلمين، وكتب فيه بعض آيات القرآن، ومفردات دينية إسلامية، وذكر بأنه لا يكذب ولا يدلس، وأنه لا يعادي السلطان العثماني، وأنه يريد الخير لمصر وشعب مصر.

وكم أصابني الهم الكبير حينما علمت أن مجرد ورقة، كانت هي السبب المباشر في مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان ذو النورين رضي الله عنه، فحينما وقع الصلح في بدايات الفتنة بين الخارجين وعثمان، ووافق على تلبية مطالبهم، وكتب لهم كتابا بذلك، إخمادًا للفتنة وحقنا للدماء.. اجتهد وزيره مروان بن الحكم من تلقاء نفسه وبدون علمه، فكتب إلى والي مصر كتابا، وختمه بخاتم عثمان، يأمره فيه بقتل الخارجين على عثمان، حينما يرجعون إلى مصر، ولكن هذا البريد يقع في أيدي الخارجين أثناء عودتهم لديارهم، فتثور ثائرتهم ويغضبون كثيرا، فعثمان من أعطاهم العهد بتنفيذ مطالبهم، ثم يغدر بهم؟! وإذا بهم يعودون أدراجهم إلى المدينة ويحاصرون الخليفة ويقتلوه، وتحدث تفاصيل الفتنة الكبرى.

وهكذا مجرد كلمات كتبها القلم، تسببت في هذا الزلزال السياسي الأول في حياة المسلمين.! ولم يكن التاريخ وحده هو الذي أصابته أقلام المزيفين بالتحريف والتضليل، فحتى العقيدة التي جاءت من الله تعالى، لم تسلم من أقلامهم الخائنة، فهاهم يكذبون على الله تعالى ويحرفون كلامه بأقلامهم الخبيثة، ويضعون كلاما غير الذي قاله وحكم به، وأنزله إلى رسله! وقد سجل تعالى هذه الخيانة العظيمة في القرآن الكريم تنديدا بفعل هذه الأقلام الخائنة الفاجرة، للحقيقة الإلهية.

يقول تعالى: (فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللهّ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ)

قال الطبري: (أُنْزِلَ فِي الْيَهُود لِأَنَّهُمْ حَرَّفُوا التَّوْرَاة، وَزَادُوا فِيهَا مَا يُحِبُّونَ، وَمَحَوْا مِنْهَا مَا يَكْرَهُونَ، وَمَحَوْا اسْم مُحَمَّد r مِنْ التَّوْرَاة أَفَلِذَلِكَ غَضِبَ اللهَّ عَلَيْهِمْ)

الكاتب هو الأعظم

إن شعور الكاتب بالمجد والفخار، شعور لا يدانيه شعور، وإحساس غريب يجب أن نقف عنده، ونتنبه له بشيء من التأمل والدراسة، إنه يرى نفسه أرقى وأعلى من كل البشر، من الحكام والزعماء والقادة والمخترعين وكثير من العباقرة، ويرى أن هذا القلم الذي يمسكه في يده، أخطر وأقوى من السلاح الذي يُمسكه الجندي في يده ليقهر به عدوه، يرى قلمه هو الموجه والمتحكم الأوحد والأساس في عقول الجماهير واختياراتهم، ومن هنا نبع هذا الشعور المتعاظم.!

وجدوا في مذكرات فولتير بعد موته هذه العبارة: (إذا لم يكن لي صولجان؟ لكن أليس لي قلم؟) وكما قيل: حق لفولتير أن يُفاخر بقلمه، كما يتفاخر الملك بصولجانه، لأنه إذا كان للملك دولة، فلفولتير كانت دول، وإذا كان لكل ملك شعب، فلفولتير كانت شعوب، من رجال الفكر والأدب في العالم أجمع، إذا كان الملوك يتفاضلون بالأثر الطيب الذي يتركونه، فأي ملك استطاع أن يؤثر في عقول الناس، بمقدار ما أثر فيها فولتير؟

"أجل إن هناك ملوكية لا تتبوأ العرش المذهب، وتعقد على

الرأس الإكليل المرصع، تلك الملوكية التي صيرت العالم بسعة الثقافة، التي يشرف صاحبها ماضيا ومستقبلا، يرسم له مثله العليا ويوجه خطاه نحوها، فقادة العالم الحقيقيون هم فلاسفته وعلمائه وأدباءه يرسلون إلينا أفكارهم النيرة عبر القرون، فنسمع لهم ونأتمر بأمرهم."

أما الكاتب الوحيد الذي لا يشعر بهذا الشعور، بل على العكس يشعر بضده، فإنه الكاتب المنافق، الذي جعل من نفسه وقلمه مطية للسلاطين، وذوي الجاه والنفوذ، يتحكمون فيه ويوجهونه حيثما يريدون، فهو قلم لا يعرف معنى الحرية والصدق والشرف، لأنه ينبع من إرادة غيره.. كما يلازمه شعور دائم بأنه عبد، وأن قلمه قلم عبد، وهو لا يحزن أو يهتم لهذه العبودية، بل على العكس إنه يستلذها ويستلطفها وينعم بها، ما دامت تدر عليه رضا سادته الكبار.

كان الكاتب والأديب الكبير الدكتور (محمد حسين هيكل) توقع الجميع أن يُنعم الملك فاروق عليه برئاسة الوزراء، ولكنه تخطاه، وعين ابراهيم عبد الهادي، وأراد أن يعتذر له، فاستدعاه وقال له في لطف: ستأتي إليك رئاسة الوزراء يا باشا بلا شك.. فرد عليه هيكل بقوله: يا جلالة الملك، أنا حين أجلس خلف مكتبي وأكتب، تصغر أمام عيني كل كراسي الحكم، وقد أوشك أن يقول للملك: حتى كرسي عرشك.

وهو نفس ما ذُكر عن العقاد حينما قيل له يوما: كيف أن (محمد محمود باشا) اختار الدكتور هيكل وزيرًا للمعارف، ولم يفكر النقراشي في اختيارك وزيرًا للمعارف؟ فضحك العقاد وقال: إن النقراشي يعلم أنه سينزل العقاد درجتين عندما يقترح تعيينه وزيرًا للمعارف.!

أما الكتاب الذين يرون عكس ذلك، ويرون أن المُلك أروق لهم وأميز من مكانة أقلامهم، فإنهم يعانون من أشياء في حياتهم تفرض عليهم هذا الاختيار الخاطئ، أو أن ثقتهم أو ثقة من حولهم بأقلامهم ضعيفة، لا تدرك معنى الجاه الحقيقي.! لقد نال طه حسين الباشاوية، ولما سأله أصدقاؤه وقتها: أينادونه يا دكتور أم يا باشا؟ ولأن سوزان كانت تسيطر عليه كل السيطرة، نطقت هي وقالت: تنادونه طبعا يا باشا، ولعلنا نجد أن زوجة توفيق الحكيم كانت أعمق من سوزان في نظرتها للكاتب، فحينما أراد (جمال عبد الناصر) أن يُكرم الحكيم في احتفال كبير، ومناسبة عامة، تجهز توفيق ووقف أمام المرآه ينظر إلى صورته، ويتأمل الموقف ويتخيل الناس والتكريم، وفجأة قالت له زوجه: إياك أن تنحني وأنت تُصافح رئيس الجمهورية، فقال توفيق في دهشة: لماذا وأنا أنحني لكل الناس وأصافح أي مخلوق؟! فقالت له: إنك عندي تساوي رئيس الجمهورية! ورفضت الزوجة الأبية أن ينحني الأدب للسياسة

والعلم للحكم، والمعرفة للسلطة.!

إن الكاتب وصاحب القلم، يرى نفسه أنه سيد هذا الوجود، وأهم رجل على هذه الأرض، وأنه يمتلك من مداده وموهبته سلطانًا يفوق كل سلطان، وأنه قد أوتي بهذا القلم الذي لا يعدو قدره شبرًا مُلكا عظيما، أقوى من ملك الفراعنة والأباطرة.

لا تتعجب فهذه المشاعر النفسية الفخمة، مستقرة في نفوس كثير من الكتاب الموهوبين، الذين دان لهم القلم، وأصبحت أياديهم تبطش به يمينًا ويسارًا، وتنال به من القريب والبعيد.. فبعضها كان يُسقط وزارات ويهدم حكومات، ويقلب الدنيا رأسا على عقب، بمقالة لا تتعدى عشرة سطور.!

وأظنني يومًا ككاتب، قد أصابني بعض الزهو، حين شعرت بفيروس هذه المشاعر يجري في دمي.. فقد كتبت يومًا مقالا أنتقد فيه أولئك السطحيين، الذين ينظرون للطبيب نظرة قدسية، وأنه من طبقة فوق طبقة البشر، فقلت فيه: «ربما يظن أحد القراء أنني كنت أتمنى أن أكون طبيبًا، ويُناديني الناس بلقب دكتور.. ومن ثم فأنا حاقد عليهم، أو معقد من مهنتهم التي حرمت منها، وأحاول هنا أن أحسدهم على حب الناس لهم، والتقليل من قيمتهم والنيل من مقامهم الكبير.. وهذا لا شك جهل وهراء ومن يظنه معتوه مخبول.!

لأنني في الحقيقة أملك مهنة تفوق مهنة الطب قوة وجسارة ومقامًا وكبرياء، فأنا كاتب أملك القلم، الذي يوجه الأمم، ويُبصر الشعوب لعزتها ورفعتها وتقدمها ووعيها بدورها وريادتها وسبيل نهضتها، وإذا كان الطبيب يحي الجسد وينفي المرض، فأقلام الكتاب تُحيي الأمم، وتشفي العقول، وتُبريء الأفهام وتنفي ظلام الجهل.!»

إن هذا الشعور الضخم الفخم، يُصاحب الكثيرين من أصحاب الأقلام، وقد يتحول في نفوسهم لظاهرة من ظواهر الكبر والغرور والتعالي.! وبعض الكُتاب الكبار، لم يكن يعتريه هذا الشعور كمجرد شعور يحسه في نفسه فقط، وإنما كان يجعل منه واقعًا ملموسًا، فالعقاد كان يُلقب نفسه كاتب الشرق بالحق الإلهي، وكان سعد زغلول يلقبه بالكاتب الجبار.!

وفي موقفه الثائر مع النحاس باشا خير دليل، فالنحاس هو زعيم حزب الوفد الذي ينتمي إليه العقاد.. وقد حدث هذا الموقف بينهما عام (١٩٣٣م) حيث قامت وزارة (توفيق نسيم) فأيدها (النحاس) وهاجمها (العقاد).. فاستدعى مصطفى النحاس باشا العقاد لمقابلته بمنزله بالإسكندرية، ووصل العقاد وكان معه محمد طاهر الجبلاوي. وعند المقابلة كان هذا الحوار:

مصطفى النحاس: لماذا تحمل على الوزارة يا أستاذ.. يا عقاد؟

العقاد: لأنها انحرفت عن الطريق السوي وتماطل في إعادة الدستور، وتعمل لصالح الإنجليز.

النحاس: ولكن الوفد يؤيد هذه الوزارة.

العقاد: لن أقف وقفة الإغضاء عن مساوئ الوزارة.

النحاس: أنا زعيم الأمة أؤيد الوزارة فما عساك تصنع يا عباس يا عقاد.

العقاد: أنت زعيم الأمة، لأن هؤلاء انتخبوك، ولكنني كاتب الشرق بالحق الإلهي.

النحاس: إن الوزارة باقية ما دام الوفد يؤيدها.

العقاد: لن تنتهي بِرية هذا القلم، إلا ويكون أجل هذه الوزارة قد انتهى.

وكانت النهاية بين العقاد وحزب الوفد، وقد حارب الوفد العقاد، فمُنع من الكتابة في البلاغ الأسبوعي، فكتب العقاد في الجهاد والأهرام في الثلاثينيات.

إن العملاق العقاد لم يكن مغرورًا بقدر ما كان يعكس حقيقة نفسه، ويعبر للآخرين عن عبقريته، التي كان يشعر بقيمتها في نفسه، قبل أن يشعر بها غيره.!

فن الكتابة

نعم إن للكتابة فنًا وطقوسًا وقواعد وعناصر، تنتقل بها من مجرد كتابة عادية، إلى شيء له أصوله وطرقه وقواعده، ولا يوضع في الميزان أبدًا، هذا الخطاب الذي يرسله أحدهم، مجردًا من أي أساليب بلاغية أو أدبية تجذب الخاطر، وتثير الوجدان والمشاعر، بكتاب أدبي يملك كل هذه الصور العذبة، ويجبر المرء على قراءته، وتأمله والانجذاب له!

لقد كان الخلفاء قديمًا يستعملون الكتاب البلغاء الفصحاء، حتى تكون كتبهم لها تميزها وزنها وقيمتها وثقلها ورونقها، الذي يليق بمقام الخلافة.

إن عبد الحميد الكاتب أشهر الكتاب البلغاء في تاريخنا، استعمله مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، ليكتب له كتابًا أدبيًا مؤثرًا يستعطف فيه العباسيين ليقبلوا بالصلح والهدنة، وكتب عبد الحميد كتابه الأدبي بلغة عالية، وبلاغة لا نظير لها، يتأثر بها قارئها، لكن أبو مسلم الخرساني داعية العباسيين وقائد جيوشهم، خشي أن يقرأ شيئا من كتاب عبد الحميد، فيتأثر به ويميل لمطالبهم فلم يقرأه، وأمر أن تقطع رقعة منه، وكتب عليها إلى مروان بن محمد هذا البيت الشهير:

محا السيف أسطار البلاغة وانتحى..

عليك ليوث الغاب من كلّ جانب

الكتابة الجيدة إذن، لها أصولها وطرقها وأساليبها، التي تصل بها لتكون فنًا يتعلم وخطوات تُنفذ، وهي الأمور التي تكتسب بدخول ميدانها، والاهتمام بها وكثرة المحاولات فيها، والتي يبذلها الكاتب مع القلم ليكون كاتبًا متميزًا، والكتابة كأي شيء في الدنيا، لو ركز الانسان عليه، واهتم به وأحبه، بلغ فيها مبلغًا جيدًا من الحذق والدراية والرتبة العالية، ونال منها غايته ومشتهاه.

والطريق إلى هذا الفن، يدفع الكاتب أن يمتلك ناصية اللغة، ويكون قادرًا على التعبير الواضح والشرح المبدع، مع التشويق المطلوب، في إطار لغة جيدة، وامتلاك واضح للعديد من المفردات والمصطلحات، لأن المخزون اللغوي كما يقرر الدارسون، أهم مكونات امتلاك القدرة على الكتابة الجيدة الرصينة، ثم يأتي معها تنظيم الأفكار، ومهارة ترتيب الجمل، والمعاني الواضحة التي تتسم بالوحدة الموضوعية، ولا تخرج عن المعنى المحدد الذي يقصده الكلام، وهي الوسائل المطلوبة التي تخلق انسجامًا بين القارئ والكاتب، وتسوق عقله لقبول كل ما هو مكتوب، ثم لابد للكاتب أن يكون ماهرًا في استخدام أدوات الربط بين الجمل، فهي الدلالة على الحرفية

اللازمة، والتي تكتسب بالتمرس والمواصلة لعملية الكتابة، والاهتمام مع ذلك بأدوات الترقيم، لتسهم بقوة في توضيح المعنى المراد، والصورة التي تقصدها الكتابة، فهي أمر مهم في عملية الكتابة ولا يمكن الاستغناء عنه أو تجاهله.

يحاول الكاتب أن يستخدم" فنيات المراوحة بين الجملة الإسمية والفعلية، وبين ضمير الحاضر والغائب، وبين الصورة واختراق العمق الإنساني فيها، بمعنى القدرة على تطويع كل الفنيات، وتقديم عمل متكامل سليم، فيه كل عناصر التقارب بين المؤلف والمتلقي للتأثير عليه، وإيقاعه بسحر التأثير بمقومات الجودة، وفنيات الإبداع، وعلى الكاتب أنْ يكون مُلمًا ذهنيًا وعاطفيًا ولغويًا بالطرق التي تُثير القارئ وتجذب اهتمامه.

وحينما يُوهب الكاتب قدرة على توليد الأفكار، وتقريبها من ذهنية القارئ، وسكبها في بوتقة لغوية مقنعة، ومعاني تصويرية واضحة، ومعبرة، فإنها تجعل من العمل الأدبي، كتلة متماسكة ومترابطة، وتمنح مجالاً رحباً لتوالد أفكار تُسنِدُ العمل وتشدُّ أواصر أركانه، وتجعل منه النص المُشوِّق الأكثر امتاعاً وإقناعًا وترابطًا "

هناك من يرى للإلمام بفنون الكتابة، أن تكون عملية متواصلة مستمرة، يستطيع الكاتب من خلالها أن يُلم بفنون الكتابة

وأسرارها، وهناك من يرى أن القراءة الكثيرة هي الأساس الذي يسبق الكتابة، وهي الغاية التي تنتج عنها المعرفة الحقيقية لفنون الكتابة.

ونحن نريد أن نجعل من فن الكتابة أمرًا شائعًا ومتاحًا يتعلمه الجميع، حتى نحسن التعبير فيزداد الجمال، وتزداد حصيلتنا الفكرية، ويكون لدينا وقتها إكبار عظيم للقلم وميادينه.

وحينما نتكلم عن كلمة فن، فنقصد بها الطرق والوسائل واللمسات، التي تجعل من كلامنا وتعبيرنا واضحًا سهلا جميلا منمقًا بديعًا.. وفي عملي يأتيني بعض المتعلمين الكبار، وهم يصوغون بعض التقارير التي لا تمثل إلا مدينة من الألغاز التي يتعب عقلي في تفسيرها، وهؤلاء وأشباههم يحتاجون لتعلم الكتابة، والتدريب على فنونها حتى يصوغوا سطورًا واضحة.

وليس الفن أبدًا ما يتصوره البعض من أنه إيراد الغريب، والاتيان بالثقيل من المفردات والالفاظ، والعويص المعقد من الكلمات، والتقعر في الجمل والكلمات، فانتهاج السهولة غاية لا يصل إليها إلا الحاذق الماهر، وهو ما يهدف إليها فن تعلم الكتابة، الذي يجهله الكثيرون، فيتقعرون في كتاباتهم للناس، والناس بدورهم ينفرون منهم، ويستقبحون أساليبهم، ولعلنا ننظر أمامنا وكتاب الله تعالى بين أيدينا، فهو القمة السامقة في البلاغة والبيان، إنه رائع في سهولته وسلاسته، وبعيد عن

التعقيد والجهامة والتقعر، ويقدم الآيات بوضوح وشفافية تامة وظاهرة، حتى يصل إلى القلوب، ويقنع العقول، والكاتب الذي يجهل فن الكتابة، يفوته كثير من الملاحظات المهمة، التي لو أدركها لتغير مسار قلمه.

فالفن الكتابي، يعبر في المقام الأول عن حركة الناس ومشاعرهم وآمالهم وآلامهم وطموحاتهم، بأسلوب أدبي واضح، بعيداً عن التقعر اللفظي والتكلف في العبارة.. حيث يختار الكاتب من ألفاظه وجمله ما يؤثر في الناس، ويصل لمستوى وعيهم.

وفن الكتابة واسع، تحتاج فيه للإلمام بحيثياته وفروعه ولوازمه، حتى تكون فيه بارعًا متميزًا، وأشكال الكتابة ليست على طراز واحد، وإنما هي متعددة، فهناك من يكتب بأسلوب علمي، وهناك الأسلوب الأدبي، وهناك الأسلوب الصحفي، وهناك الأسلوب الاقتصادي، والسياسي والاجتماعي، وكل مجال من هذه المجالات، تجد له طرقه المعروفة، وفنونها المنتهجة، التي يتقنها كل كاتب فيها، ويعرف أساليبها التي تستخدمها أكثر من غيره.

يقول المتخصصون عن فن الكتابة: لكي تكتمل معالمه، ولكي توجد الدوافع إليه، لابد من وجود بعض المقومات التي تؤسسه وتظهره، فأي بيئة يعيش فيها الإنسان، ويتشبع بثقافتها، نجد أفكارها تعرض عليه ليل نهار، وتترسخ في

باطنه، وتدخل أول ما تدخل إلى عقله الواعي، الذي يعد المسؤول الأول عن المعلومات التي يريدها العقل، وتنفذ منه إلى العقل الباطن لتصير من جملة الفكر.. ومعروف أن الفكر والتفكير، يسبق عملية الكتابة، والكتابة لا تستمد مادتها إلا من الفكر، الذي استمد هو ثقافته المتراكمة من العقل الواعي منذ زمن كبير.!

ثم تأتي بعد ذلك الحصيلة اللغوية الفصيحة، والأسلوب الجيد الذي يعبر عن الأفكار الموجودة في العقل، وحينما يفتقد الكاتب هذه اللغة، لا يستطيع أن يُعبر عن ما يجد في وجدانه بطريقة سليمة، فهي إذن مجموعة مقومات، تساعد على إظهار الكاتب بشكل جيد محترف مبدع، فمن الممكن أن يكون هناك المتحدث الجيد اللبق الذي يعتمد على مخزون الفكر لديه، لكنه يعجز كليًا عن التعبير بالكتابة، لأنه فقير في الأسلوب والحصيلة اللغوية، التي هي من أساسيات الكتابة، حتى الإلقاء نفسه، يعد فنًا من الفنون، وقد يوجد من لديه أفكار عظيمة مخزونة في أعماقه، يعبر عنها بالقلم تعبيرًا جيدًا، لكنه يعجز عن إبرازها عن طريق الإلقاء.!

للكتابة أصول وفنون تسوق الكاتب للاحتراف في التعبير بالقلم، ومن ثم.. يجب التلميح إليها ودراستها والتعرف على نماذجها، وقد كان المتعلمون قديمًا يتعلمون فن الإنشاء،

ويؤمنون أنه أعظم الطرق التي تصقل تعبيرهم، طالما تمرنوا عليه، وحفظوا عبارات تسهم في ترقيقه وحذقه وتطويره، ومن يقول بأن الكتابة صعبة المراس، وأنها تحتاج إلى موهبة فذة، يعد كلامهم هذا غير دقيق، والصواب أنها أمر متاح ومباح لكل من أقبل عليه واهتم به، وحاول أن يصل فيه إلى مرتبة عالية، وهي مسألة تُكتسب كغيرها من المهارات بالممارسة والمحاولة والتجارب المتواصلة، بلا ملل أو فتور.. فقط ضع الأمر في عقلك واهتمامك وركز فيه، وألق ما في تفكيرك من أوهام تقيدك وتفسد عليك طلبك له.

وكثير من فنون الكتابة يكتسب بالممارسة المتواصلة، فهي بمثابة التدريب على إتقان الأسلوب الجيد، وتنقسم إلى:

أولا:جانب نظري أو علمي: وهو معرفة قواعد الإملاء والترقيم والقواعد النحوية والإعرابية والأخطاء اللغوية الشائعة.

ثانيا: الجانب العملي أو الحرفي: وهو معرفة الطرق الحرفية في التعبير والإتيان بألفاظ وجمل بيانية بلاغية محفوظة، وحفظ كثير من المفردات الإنشائية، وتطوير القلم من حالة الجمود والتوقف عن القدرة على العطاء والتجدد، والتحرر من نداء الإحساس والإلحاح الوجداني إلى المبادرة السريعة للخط بالقلم.

موهبة أم اكتساب؟

يظل السؤال شاخصًا محيرًا لدى الكثير من الأشخاص: هل الكتابة موهبة أم اكتساب؟

الحق أن الجواب على هذا السؤال باختيار أحد الأمرين، لا يكون صوابًا، لأن الكتابة في المقام الأول، حب ورغبة وإقبال، والذي يمكن أن تُعده طرفًا ثالثًا محتم الوجود في المعادلة، فلو حاول المرء أن يكون كاتبًا بلا حب، فلن يتمرس، ولو كانت لديه موهبة الكتابة بلا حب، فلن تنهض هذه الموهبة، أو يكتب لها شيء من التوفيق، ومن هنا يجب للكاتب أن يتحرك إلى عالم الكتابة، بحب وشغف للقلم والتعبير به، وينشأ بداخله حماس قوي للكتابة، وهو العنصر المهم والقوي الذي يدفع للتميز والتمكن من الكتابة، ويثمر التوجيه إليها والهيام بها والقدرة عليها.

كما أنها عملية وجدانية نفسية، فليست كل الأوقات، يستطيع المرء الكتابة فيها، وإنما هي أوقات خاصة يستحضر فيها الالهام واعتدال المزاج والرغبة في التعبير عما يجد في حنايا صدره.

والكاتب الذي يكتب بإلهام، يشعر فيما يكتب بروح وجاذبية، بعكس هذا الذي يكتب مجردًا من لمسات الوجدان، ونداء

العاطفة، حيث نبصر فيما كتب فتور وبرود ملموس.

وفي تحديد تأثير الموهبة نرى كثيرين يُعرضون عن الكتابة، لأنهم سمعوا من يؤكد أنها موهبة فقط، مما يصيبهم باليأس الكبير في أن يكونوا كتابًا، ويُعرضون تمامًا عن أي محاولة تقرب إليها، فلا يفكرون في أمرها بعد ذلك مجرد تفكير، حتى وإن تحامل بعضهم على نفسه وتحدى ذلك، فسوف يجد في نفسه وهناً يهتف به: إن محاولتك فاشلة غير ناجحة، ولن تجدي شيئًا، لأن الكتابة موهبة، كما سمع وكما أُخبر بذلك.!

يقول صاحب كتاب (لكي يكون لحياتنا معنى): « وإذا كان بعض كبار الكتاب قال: إن الكتابة موهبة، فإن بعضهم الآخر يقول: بأن الموهبة في الكتابة لا تمثل إلا جزءًا من عشرة أجزاء، وأما التسعة الباقية، فتتمثل في ممارسة الكتابة مع الصبر»

نعم إنه الصبر الذي لا يعرف الملل، كثيرون من الذين يكتبون لم يولدوا كتابًا، وإنما بلغوا مستوى جيدًا بالصبر والمجاهدة والمثابرة والتمرس على القلم والكتابة، فهي عادة تُكتسب بالممارسة، شأنها شأن كثير من العادات المتنوعة، التي إن واظب الكاتب على فعلها أتقن أسرارها وصار خبيرًا بدروبها.

كما أنها شيء كأي عمل في الحياة، نجده في بدايته عصيبًا عسيرًا لأنه جديد علينا، ولكننا بمجرد البدء فيه وخوض غمار

ساحته، تتيسر أموره، وتزول منه الصعاب، ونجد أنفسنا في نهاية المطاف نكتب بسهولة وإجادة واحترافية، وبدون أي عناء أو إرهاق.

(إن العمل الجاد من أهم العوامل التي تُساعد الفرد على الكتابة بجودة عالية، حيث يعتقد الكثيرون بأن الكتّاب الناجحين، يملكون مهارة فطرية، مكنتهم من الكتابة بهذا الشكل الجيد، إلا أن الحقيقة تكمن خلف عملهم الشاق على مر السنين، عفي صقل مواهبهم وتحسين قدرتهم على الكتابة، وبذلك يستطيع أي شخص فعل الشيء ذاته، من أجل الوصول إلى نفس المستوى بالكتابة، وبغض النظر عن الهدف الذي يسعى إلى تحقيقه من وراءها، سواء أراد الفرد الكتابة فقط ليصبح كاتباً أفضل في أي مهنة يختارها، أو من أجل القيام بمهنة الكتابة.)

يقولون: إن الموهبة مصدر كل السلطات.

إن الطريق الأمثل الوحيد لإيجاد هواية الكتابة في نفسك، هو الحب والرغبة،، كما ذكرنا في أن تكون كاتبا يعبر بالقلم، ومن ثم تأتي الخطوة الثانية والتي لا تقل أهمية.. ورأيي دائمًا أن الإنسان يستطيع أن يُوجد فيه كثير من القدرات والرغبات والجاذبية إلى المحاكاة، لو أننا أحطناه منذ صغره بما نريد منها له، وأحطناه بظروفها ومرغباتها وبواعثها، فلو نشأ الصغير في بيئة مثقفة، توجد فيها الكتب والمكتبة، وله أبوان يُعنيان

بالقراءة، فإن هذه الحالة لا يمكن أن تمر مرورًا عابرًا دون أن تؤثر في نفسه، وتدفع به إلى إلف القراءة والرغبة في ممارستها.. إن (إحسان عبد القدوس) عشق الكتابة، لأنه كان يرى والده الأديب، يكتب فيذهب ليأتي بورقة وقلم ويحاكيه، وكانت هذه هي البداية التي خرج منها إحسان ذلك الكاتب والأديب الكبير.

من المهم جدًا أن تحاول وتبدأ.. ومن الأهم.. أن يكون حولك من يُبَّصرك ويرشدك ويعمل على تطويرك، ويلفتك لما غاب عنك، ويصوب أخطاءك ويُصلح ما اعتل من كتاباتك.. ومع هذه البداية والاستمرارية، تشعر بعدها بتحسن كبير، وتطور ملموس، ومع كل محاولة تكتسب خبرة أكثر، حتى تصل لدرجة مرضية لم تحصل عليها بالموهبة بقدر ما حصلت عليها بالاكتساب.!

لقد لزم الأصمعي الخليل بن أحمد الفراهيدي مدة كي يتعلم منه علم العروض، فتأبَّى(امتنع) عليه ذلك وامتنع، فمازال يُعالجه ويكرر المحاولة في التعلم ففشل، فلطفه الخليل يومًا محاولا أن يُثنيه عن التكرار المضيع لوقته ووقت الأصمعي، في شيء ليس لديه الاستعداد الفطري لتعلمه، فلما جاءه قال له: أتُحسن أن تُقطِّع قولاً لقائل:

إذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع؟**

ففطن الأصمعي إلى مقصد الخليل، فترك تعلم العروض، وانقطع إلى تعلم علم اللغة، حتى صار إمامًا من أئمتها المعدودين في العربية، وفي القصة مغزى مهم، وذلك أن كثيرًا من الشباب الآن لا يفهم قدراته لكي يوجهها التوجيه الصحيح الملائم، وبعضهم الآخر يأخذه هوس الفن، فيريد أن يكون كاتبا روائيا بـالقوة، وقاصا وشاعرا أيضا بـالقوة، ومن هنا يأتي دور المعلم والمثقف الأمين، الذي يُفتش عن مواهب طلابه وقدراتهم، ويدفع بهم إلى الطريق السديد.

هناك من يجزم أن الكتابة موهبة، وهناك من يؤكد أنها اكتساب، ولكننا أحببنا أن نؤكد أن الحب والرغبة في الكتابة، هما الطريق الأهم لصناعة كاتب جيد.. والذي يرى نفسه موهوبًا في الكتابة، ثم يترك هذه الموهبة دون رعاية أو اهتمام، فإنها ستموت وتنتهي، وبعضهم يُشبه الموهبة بالعصفور الذي أُهدي إليك وهو صغير، فكبرت أنت بينما أهملته هو، فلم تطعمه وتنميه وتركته حتى مات.

«قد يكون لدى زميلك أو جارك: المهارات العقلية والخبرات اللازمة؛ ليكون كاتبًا أفضل منك بكثير، لكن ينقصه الشغف الذي بداخلك، فهو ليس مهتمًا بالكتابة، فما الفائدة في هذه المهارات، أو من المواهب التي متعه الله بها؟ وهناك في المقابل من يحبون الكتابة، ويكرسون ساعات طويلة من الدراسة

والعمل، حتى يصلون للنجاح الذي يتحقق بالكفاح الجاد، بل سيكون لديهم شعور عالٍ برضا الذات؛ لأنهم عملوا كثيرًا وتعبوا للوصول للهدف، ولم يكن ذلك سهلا يسيراً!»

«الكتابة مهارة تحتاج إلى استعداد فطرّي، فالكاتب أيا كان شاعرا أم ناثرا لابد أن تتوافر له رهافة في الحس ودقة في الشعور، ومن ههنا نجد مثل ابن رشيق القيرواني في كتابه العمدة يقول: « وإنما سُمي الشاعر شاعرًا لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره..» فإذا كان الاستعداد الفطري والموهبة غير موجودتين، فمن الصعب أن تأخذ الكتابة الفنية طريقها إلى مفتقد هذا الاستعداد الفطري؛ لأن الاستعداد والموهبة الفطرية مهمٍ لكل شيء، وليس للكتابة الفنية فحسب، فإنه مما تأصل في وجدان الناس أن: «فاقد الشيء لا يعطيه»

وهناك من يرى رأيًا جوهريًا محترمًا: «فالكتابة هي لغة التواصل بين البشر باختلاف ألسنتهم، ولكن هل تحتاج الكتابة إلي موهبة؟ نعم.. ولا، برأيي تحتاج الكتابة إلي موهبة، عندما تصاغ في قالب شعري أو قصصي، أما أن تتحدث محللا أو ناقدا في مجال ما، فذلك لا يتطلب موهبة، بل خبرة ودراية بما تتحدث عنه، وأن تصف حياتك وصفًا مجردًا أو تقص ما بها من ذكريات، فذلك فطري ولا يحتاج الي موهبة، إلا إذا صيغ كما سبق وذكرت.»

هناك بعض الصور الحياتية التي تؤكد لنا انحياز الكتابة إلى الاكتساب والمهارة، أكثر من انحيازها للموهبة! فالموهبة هي تلك القيمة التي تستقر في أعماق صاحبها، ثم لا تلبث إلا قليلا حتى تترجم عن نفسها، وتبدأ في مداعبة صاحبها ومناشدته والاختلاء به، ثم السيطرة عليه.!

ولا يجد صاحب الموهبة بُدًا من الاستجابة لندائها، وتسخير وقته وعقله وفكره لإلحاحها في نفسه، وهي العملية النفسية التي تبدأ مبكرًا جدًا في نفس الموهوب، ولكن ماذا نقول، وبماذا نفسر ذلك الذي يبدأ الكتابة ويدمنها ويتفتق لها ذهنه، وهو في سن متأخرة في الأربعينات أو الخمسينات؟ وربما الستينات، وهو عبر هذه العقود الطويلة الماضية، ما كان يجد لها في نفسه أي بصيص أو أثر لنداء أو رغبة أو إلحاح، بل كان منهم من تعاظم في أيديهم وبين أصابعهم مارد القلم، ولم تكن البداية إليه من ذات أنفسهم أو باختيارهم، وإنما أرغموا عليه وكلفوا به، وهي الحالة التي تؤكد لنا ما قلناه بانحياز الكتابة إلى عامل الاكتساب والتحصيل، أكثر منها إلى وجود الموهبة.!

في عام ١٩٥٩م كان المفكر الكبير الدكتور (محمد البهي) يعمل مديرًا عامًا للثقافة الإسلامية بالأزهر الشريف، وفي هذا التوقيت تحديدًا قُدر للشاب (يوسف القرضاوي) أن ينتقل من الأوقاف للأزهر ليعمل مع الدكتور (البهي) إلى أن وردت إلى

وزارة الخارجية المصرية من بعض سفراتها في أوروبا و أمريكا احتياج المسلمين في الخارج، إلى كتب علمية ميسرة معاصرة في ثلاثين موضوعًا في المعاملات والآداب والأخلاق، و كان من هذه الموضوعات ما جاء تحت عنوان (ما يحل للمسلم وما يحرم عليه)..ووقع اختيار (البهي) على (القرضاوي) و أسند إليه موضوع (الحلال والحرام) وكان التكليف مفاجأة، فلا عهد للقرضاوي بالتأليف، ولكنه كان على موعد مع أول كتبه، والذي كان بداية الغيث ومهد الانطلاقة في عالم التصنيف، و الذي لم يكن ليطرق بابه لولم يلمح فيه (البهي) حبه للفقه ومسائله!

لقد كتب القرضاوي بعض المقالات اليسيرة في مجلة منبر الإسلام بحكم عمله مع شيوخ الأزهر الكبار، أما أن يؤلف كُتبًا وفي الفقه، فهو مالم يجل بخاطره، أو يمر بخياله يومًا من الأيام.

وهناك كتاب بدأوا الكتابة في عمر متأخر كـ (لورا إينغلاس وايلدر) التي أصدرت سلسلة قصصها الشهيرة (المنزل الصغير على المرج) وهي من أكثر القصص التي أسرت خيال التلاميذ الأمريكيين لفترة طويلة، وبدأت وايلدر الكتابة في عام ١٩١٠ وكانت تبلغ الخامسة والستين، عندما خرج الكتاب لأول مرة للنور، وتبعته بالعديد من الكتب، وكان أخرها عندما كانت

تبلغ السادسة والسبعين من عمرها.

وهذا ميغول دو سيرفانتس قبل كتابة روايته الشهيرة دون كيشوت،كان يعيش حياة تشرد مليئة بالكثير من الضائقات المالية، كما قضى معظمها سجيناً خلف القضبان، عانى ميغول من عدة أعيرة نارية، و ذلك أثناء خدمته في الجيش الإسباني أدت لفقده القدرة على استخدام يده اليسرى، و تم حبسه لمدة خمس سنوات حيث كان يباع كرقيق بعد اختطافه على يد القراصنة البربر، مع عدم قدرته على إعالة نفسه ككاتب، قضى فترتي الثلاثينات والأربعينيات من عمره يعمل كضابط في البحرية، وفي جمع الضرائب، وتعرض للسجن مرتين بسبب مخالفات محاسبية وسوء الإدارة، وكان في أواخر الخمسينيات من عمره، عندما نشر روايته الأولى الشهيرة في عام ١٦٠٥ ثم قام بنشر العديد من القصائد والقصص القصيرة، كما نشر الجزء الثاني من دون كيشوت، والتي طُبعت قبل أشهر من وفاته عن عمر يناهز الثامنة والستين.

وكان روسو متعثرًا للغاية في حياته المهنية المبكرة، وكان دائم الانتقال في أنحاء أوروبا، وشغل العديد من الأعمال، و لكنه كان دائم الفشل، و لم يكن نجاحه إلا في عامه الثامن والثلاثين، عندما فاز كتابه في مسابقة المقال برعاية أكاديمية ديجون.

أما الكاتب (ألكسندر ماكال) فكان كتابة الأول عندما أتم

عامه الـ٥٠،كما أن الكاتب ريتشارد آدامز لم يفرج عن روايته الأولى إلا بعد تجاوزه الـ٥٣ من عمره، فلم يكن «آدامز» من كتاب الأدب ولا محترفيه، وكل علاقته بالأدب، كانت تتلخص في أنه ابتكر حكاية مسلية ليحكيها لابنتيه، فأعجبت القصة ابنتيه وطلبتا منه أن ينشرها في كتاب، فنزل الأب على رغبة ابنتيه وعكف سنتين حتى أنهى تأليف الرواية، تحت اسم «أسفل الزورق المائي» ولكنه فوجئ بالمعاناة الطويلة من الكتابة، وتعرض لمعوقات كبيرة في نشر الرواية، أصابته باليأس وكادت أن تجعله يكفر بالكتابة والتأليف والنشر، حيث قام بعرض الكتاب على أكثر من أربع دور نشر، وأكثر من ثلاث مؤلفين رفضوا جميعهم الموافقة على طباعة روايته، وبدأ يعيد حساباته حول صلاحيته ككاتب، وفي خلال هذه المراجعة، تلقى رسالة من دار نشر «ريكس كولينجس» تخبره بالموافقة على نشر الرواية، وما أن نزلت الراوية إلى الأسواق، حتى اكتسب الكتاب شهرة عالمية، وعلى مدى السنوات القليلة التالية، باعت الرواية أكثر من مليون نسخة فى جميع أنحاء العالم، وأصبحت من أهم الروايات الكلاسيكية الحديثة، وفاز آدامز باثنين من أرقى جوائز كتب الأطفال البريطانية.

التشجيع على الكتابة

كان من عادة جمال الدين الأفغاني أن يستكتب تلاميذه في الموضوعات التي يتحدث فيها، كي يدربهم على قوة التعبير وترتيب الأفكار.. وكتب سعد زغلول مع غيره في الحرية، فأعجب الأفغاني به وعلق قائلا: مما يدل على أن الحرية ناشئة في مصر.. أن يجيد في الكتابة عنها هذا الناشئ..كانت كلمات الأفغاني قوية في تحفيز الفتى الناشئ وتشجيعه على التعبير والكتابة.

بعض الكتاب الكبار، توجهوا للكتابة وحب القلم، عن طريق المحاكاة والتقليد، حتى تضخمت في نفوسهم هذه الرغبة إلى حب وإدمان، وصاروا في ميدان الكتابة شيئا يذكر.

في كثير من الأحيان، تنتابني الرغبة القوية في كتابة موضوع بعينه، وسرعان ما أجد من الكبار من تناوله، وأدلى فيه بدلوه، فتفتر عزيمتي التي كانت متوقدة، وأقول لنفسي: ماذا عساي أن أضيف أو أبتكر، وقد تحدث فيه فلان، وكتب فيه علان، ولكن إيماني باختلاف الأذواق، وتباين الحس من شخص لآخر، يردني ردًا، ويحفزني أن أستمر فيما رغبت فيه.

ومن ثم.. تحتاج كل هذه المشاعر المثبطة، إلى تشجيع كبير

حتى تملأ الكاتب وصاحب القلم ثقة بنفسه، فينطلق في عالم الموهبة انطلاقة الصاروخ! والتشجيع قد يأتي بصور متباينة، ولا يكون على وتيرة واحدة، فقد يكون متعمدًا وغير متعمد، وقد يكون في الكبر، كما يكون في الصغر، والمواهب الكثيرة التي تحاول تلمسها في الصغار، حتى تدفعهم لها وتنميها فيهم، لا أرى الكتابة فيها أومنها، لأن الكتابة أمر ضروري، يجب أن يشب عليه كل الناس ،كما يشبون على الطعام والشراب، فهم في حاجة إلى القلم، وإلى التعبير، تمامًا كحاجتهم للطعام والشراب.

إن الكتابة في نظري دائمًا ضرورة حياتية للإنسان، وهي قدرة ومهارة لا يجب أن يستأثر بها الكتاب وحدهم، وإنما لابد أن يكون لك نصيب منها كإنسان عادي، ولا نريد هذا الحد أن يصل إلى درجة الأستاذية، والاحترافية والعبقرية التي لا حدود لها، ولكننا نقصد بالحد الذي تستطيع به أن تعبر عن احتياجاتك، وما يدور في داخلك.

ولعل هذا يرجع ابتداء إلى توجيه الأسرة، وتقريب الأبناء للكتب، وتحبيبهم في القلم، ليخرج للحياة وقد اتخذ منه سلاحًا يواجه به كل ما يعترضه فيها من مشكلات وعقبات، وكم يكون السرور بالغًا حينما نقرأ لأدباء، ثم نكتشف أنهم أطباء ومهندسين أو ضباط، لكنهم عشقوا القلم والكتب

والأدب، فملكوا ناصية البيان وطاعت لهم أقلامهم، لأنهم وجدوا من يشجعهم، وينمي فيهم هذا التوجه.

ومن هنا لابد أن نقوم بتشجيع أبنائنا على الكتابة، والاهتمام بإنشائهم، ومحاولة تطويره ودفعه للأمام، وتحفيزهم المتواصل بالجوائز والأعطيات، حتى يحبوا القلم والكتابة والورق، كما يحبون غيرها من المعشوقات.. ولعل هذا التشجيع أن يخرج من ورائه أديب أو مفكر أو كاتب كبير.!

في فيلم (الآنسة بوتر) الذي أصدرته BBC عام ٢٠٠٦م يحكي القصة الحقيقة لكاتبة قصص الأطفال الإنجليزية (بياتريكس بوتر) وكيف أنها كانت مولعة برواية القصص الخيالية للأطفال منذ صغرها؟ ورغم أن والدتها لم تدعمها مطلقًا، وكانت دائمًا تسخر منها، إلا أنّ (بوتر) لم تهتم لذلك، وحرصت على تطوير مهارتها، بل ونشر قصصها بنفسها حين كبرت، إنها قصة فتاة أُوتِيت موهبة الكتابة والرسم منذ الصغر، وأدركتها هي وأصقلتها مع مرور الأيام.

أما الشيخ علي الطنطاوي، فسجل البداية العظيمة التي شجعته على المضي في صحبة القلم، والطريق الذي فتح له حب الادب والكتابة، حتى كان له هذا الإنتاج الغذير يقول: « لقد كان رفيقي (سعيد الأفغاني) يمد شفتيه ساخراً كلما حدثته عن آمالي في الحياة، ورغبتي في أن أكون كاتباً

يشار إليه بالبنان» لكنه انطلق في مسيرته غير عابئ بسخرية سعيد، وشفتيه الممدودتان، فقرأ لكثير من الأدباء كالمنفلوطي والزيات والرافعي وغيرهم، وأحس عقب هذا بأشياء تجيش في نفسه، فنفس عنها بمحاولة الكتابة، فاستوى له مقال قرأه على رفيق له، فاستحسنه وعرض عليه أن يسعى لنشره، فاستكبر الطنطاوي هذا الأمر، ولكن صديقه ألح عليه، وما أبعد البون بين هذا الصديق المشجع، وبين الصديق الأفغاني المثبط، فذهب إلى دار المقتبس في شارع السنجقدار العظيم، والتقى بالأستاذ (أحمد كرد علي) صاحب الجريدة، ودفع إليه المقال، ولم يكن النشر في ذلك الوقت أمراً سهلاً أو ميسوراً للمواهب الشابة فهو يقول :« لم يكن من إخواننا من يعرف طريق صحيفة أو يجرؤ على النشر فيه» وحينما تسلم الأستاذ (أحمد كرد) مقالة الشاب اليافع (علي الطنطاوي) نظر فيه فرآه كلاما مكتهلاً ناضجاً، ونظر إلى الطنطاوي فرأى فتى صغيراً، فعجب أن يكون ذاك من هذا ! وكأنه لم يصدقه، فاحتال عليه حتى يمتحنه بشيء يكتبه أمامه، وزعم أن المطبعة تحتاج إليه ولا يصح تأخيره، فأنشأ له الطنطاوي إنشاء من يسابق قلمه فكره، فازداد عجبه منه ووعده بنشر المقال.

يقول الشيخ الطنطاوي: «فخرجت من حضرته وأنا أتلمس جانبي، أنظر هل نبتت لي أجنحة أطير بها، لفرط ما استخفني

السرور، ولو أني بويعت بإمارة المؤمنين، ما فرحت أكثر من فرحي بهذا الوعد، وسرت بين الناس وكأني أمشي فوق رؤوسهم تعالياً وزهواً، وما أحسبني نمت تلك الليلة ساعة، بل لبثت أتقلب على الفراش أتصور أي جنة من جنات عدن سوف أدخل في غداة الغد...أي كنز سأجد، وجعلت أترقب الصباح كعاشق متيم ينتظر وصلاً بعد طول الهجران، حتى إذا انبثق الصبح وأضحى النهار، أخذت الجريدة، فإذا فيها المقال وبين يديه كلمة ثناء، لو قيلت للجاحظ لرآها كبيرة عليه..»

وأمام الموقف ..كان من الوارد أن يعرض عنه الأستاذ (أحمد كرد)، فهو رجل صاحب جريدة ومسؤول، وليس لديه وقت ليشغله مع فتى صغير، من المؤكد أنه لا يحسن الكتابة، لكن الأستاذ (كرد علي) كان على خلاف ذلك، فقد كان ممن يؤمنون بالتشجيع، ويعرفون أثره العميق على النفوس، ويخشى إن هو أعرض عن هذا الفتى أن يطفئ في نفسه هذا الحب الوليد للكتابة، ولكن هناك شك كبير يمسك بتلابيب نفس صاحب الجريدة، ولكي يعالج هذا الشك العالق به، كان ولا بد من هذه الفكرة التي لا مناص منها وهي اختبار الفتى حتى يظهر البرهان، إن كان المكتوب ملكه وإنتاجه أم احتال به وسطا عليه من أحد الكتاب.! ونجح الشاب في الاختبار، وكانت هذه هي البداية لمشوار الكتابة، للعلامة الأستاذ علي الطنطاوي.

وشبيه بهذا ما حدث للأديب الكبير (عبد الحميد جودة السحار) الذي أصابته عقدة الساخرين، وظل لها أثرها السلبي في حياته، فهو يحدثنا في مذكراته الطريفة التي نشرها تحت عنوان (حياتي) عن نشأة هذه العقدة في بداياته مع الكتابة، فكان كلما كتب شيئا من الإنشاء اتهمه زملاءه من التلاميذ، بأن أخاه من كتب له هذا الإنشاء الجميل، حتى اختبرهم المعلم يومًا ليتبين إن كان هو من يكتب أم أحد آخر، وكتب السحار بإجادة واقتدار، وحينما وزع المعلم كراسات الإنشاء، ترقب الجميع نتيجة الفشل التي يعلنها المدرس: ولكنه أعطاه كراسته وقال له: أنت يا بني أديب، وكانت كلمات عظيمة محفزة، دفعته بقوة إلى عالم الأدب..

قابل الرجل زوجته الأديبة في الثلاثينات، وكان يعمل وقتها مدرسًا للرياضيات، وساقته الاقدار للسكن في بيتها حينما كان يبحث عن سكن مفروش، وكانت وقتها تدرس الأدب، وتآلفا وأصبحا صديقين لا يتفارقان، ثم تزوجا في عام (١٩٤٠م) وغمر الحب حياتهما، ورغم هذه الحياة المليئة بالحب والتقدير، إلا أنها لم تخل من منغصات وآلام ساقها إليهما القدر، فقد فقدت الزوجة الشابة ثلاثة أطفال رضع، ولم يستطيعوا البقاء في الحياة بسبب مرض الدم الوراثي الذي نقلوه عنها.. وأصيب الزوجان باليأس بعد رحيل هؤلاء الأطفال، فلم يحاولا مرة

رابعة، ولم يكن لهذا الحرمان الشديد من الأبناء، ليمر سهلا على هذه الزوجة الطيبة، فقد أصيبت بنوبات اكتئاب عنيفة، لازمتها خمسة عشر عاما كاملة.. وهنا أمام هذا الاضطراب، حاول الزوج المحب الوفي أن يبحث عن مخرج لهذه الزوجة مما أصابها وأفسد حياتها، وأذهب منها أسباب البهجة، فظل يبحث عن الطريقة التي تخرجها من هذا الكابوس المهلك، وكان يعلم عنها حبها للكتابة، فشجعها على الكتابة القصصية، وأكد لها بين الحين والحين، أنها موهوبة وأديبة، وأخذ يحثها ويشجعها أن تنشر قصصها وتراسل الصحف، وأمام هذا الشحن والتشجيع آمنت الزوجة بموهبتها، ووثقت في قلمها، وفكت عن روحها بعض قيود الاكتئاب، وبدأت تكتب وتراسل الصحف والناشرين، حتى ذاع اسمها ونشرت لها كل الصحف، وصارت فيما بعد، من أشهر الروائيين الانجليز، والتي توزع كتبها بملايين النسخ، وأقبلت عليها السينما التي جسدت ١٣ عملا من أعمالها الروائية إلى أفلام ومسلسلات، ولم تحقق الشهرة الكبيرة فقط، وإنما حققت معها ثروة هائلة، لقد عاشت مع هذا الزوج العظيم ٤٨ عاما.. وأمام هذا النجاح الأسطوري قال النقاد: إنه لولا تشجيع هذا الزوج العطوف على احتراف الكتابة، لما نجت من الاكتئاب، وربما أصيبت انهيار عصبي أو أقدمت على الانتحار.. وحاول بعض الأصدقاء المقربين أن يصف هذا الزوج، ويصف كيف

كان سندا عظيما مثاليا لزوجه فقال: «لقد وقف إلى جوارها يمرضها ويرعاها خلال محنة الاكتئاب، ثم في خمس أزمات قلبية شديدة أصيبت بها بعد ذلك خلال رحلة العمر، وحين أجريت لها جراحة خطيرة قبل سنوات، وفي كل هذه الأزمات كان هو اليد الحانية التي تربت على كتفها ويبتسم لها ويشجعها على احتمال الأحزان والآلام، بل كان الحصن الذي احتمت به من عوادي الزمن ومخاوفه وأخطاره.. والشمعة المضيئة في العتمة المظلمة. وظلا معا ٤٨ عاما ورحل بعدها بـ ١٨ يوما.»

لماذا أكتب؟

إن القراءة متعة، يمكن أن يمارسها أي أحد لكن الكتابة متعة لا يمارسها أي أحد، والإقدام عليها ينبع بإشعار وإحساس داخلي، ولو أن هذا الإشعار والإحساس وجدا اهتمامًا وتحفيزًا، لربما خرج منه مارد كبير في عالم الكتابة.

لقد أحببت الكتابة، ومن قبل أن أحبها عرفت أنها شيء عظيم وأنها ملكة لا توهب إلا للقليلين، ومنذ الصغر عملت على إنمائها وتكبيرها وتضخيمها، في ذاتي ونفسي، وكانت هناك محفزات كثيرة تعينني عليها، كمراسلة الصحف والمجلات والكتابة فيها، والجمهور الذي يقرأ لي ويهتم بما أكتب ويتابعني باستمرار، كنت أجد متعة كبيرة تسعد لها النفس، وأشعر أنني أنجزت شيئًا عظيمًا خاصة حينما يقابلني الناس في الشارع ويخبرونني أنهم قرؤوا لي.. كنت أشعر بتفوق ذاتي وتميز عقلي ونفسي في هذا المواقف.

وحينما كبرت واعترضتني كثير من هموم الحياة، وجدت نفسي ألجأ إلى القلم، لأعبر به عن مكنون همومي وأحزاني، أو بوادر سعادتي، دائمًا كنت ألجأ إلى القلم كصديق أبثه شكاتي، وأشرح له حالي، وأصف له ما بداخلي، وكان وهو يسطر حالي، كأنه

يخبرني بما في، وكنت أشعر تجاهه، أنه صديق ذكي فطن، يبصر ما ينفعل في ذاتي من مشاعر وأحاسيس ينبئني بها على الورق، كان شيئًا مبهجًا حينما تبدأ أفكاري بسطر واحد أو عبارة واحدة، ثم تأخذ مع التأمل والتفكر وتشجيع القلم، تكبر وتكبر ككرة الثلج حتى تصير مقالا كبيرًا، أو فكرة لكتاب أثير، القلم هو الذي يربطنا بعالم المفكرين والمنظرين والمصلحين، الذين لديهم فكر يريدون أن يقولوه، وتعبير ومشاعر يريدون تهذيب الناس بها، يستطيع المفكر بالقلم أن يستحضر عقائد الوجدان، أكثر مما يستحضرها المتكلم المرتجل، القلم هو الشيء الوحيد الذي من الممكن أن يجعل الخيال حقيقة، والقصة الأسطورة إلى واقع حياتي، حينما يقص تفاصيلها للعقل والعين، فتستقر بتصويرها في الأعماق، ربما أمل القراءة يومًا ما، وأحب التغيير والخروج للهو والمرح، لكن ولعي بالقلم لا يفتر أبدًا، فإذا ما جنَّت فكرة في العقل، سارع القلم لتسجيلها حتى لو رأى القيامة أمامه تقوم، والهول ينصب أشرعته لحساب الناس.!

ولكن ما الذي يجعل شغفنا وتعلقنا بالكتابة يزداد يومًا بعد يوم؟

كان هناك كتاب تحت عنوان «لماذا نكتب؟» وهو يحشد عددًا كبير من الكتاب، كلهم يجيبون على نفس السؤال، لقد كانت الأسباب مختلفة ومتنوعة، فالكل لديه سبب من أجله يمسك

بقلمه كل يوم ويبدأ في الكتابة، في هذا الكتاب نجد مئات الإجابات على هذا السؤال، ومن بعضه ما يلي:

«أكتب شكوى وتألم من حالي لأعبر عما يدور بداخلي من حزن وألم من فرح وشجن، لأجد من يسمعني ويشعر عما يدور بداخلي يشاركني حزني ويسعد لفرحى، اعتبر الكتابة متنفس خارج الواقع الذي أعيشه، ربما لأن تلك الطريقة الوحيدة التي أستطيع التعبير بها ولآنها أيضا الطريقة الوحيدة التي أعلم أن هناك من قد يهتم لأمرى من خلالها.

أكتب نيابة عمن لا يملكون حق التعبير، أو لا يستطيعون، هم ينتظرون أن يجدوا أحدًا يشعر بهم ويعبر عما يجول بداخلهم، مثلما كنت أريد أنا.

أكتب لأن الكتابة هي الملجأ الوحيد الذي أعرفه، ولا يمل منى أبدًا، أنفس بداخله ما يجول بصدري، وأعبر عن مشاعري تجاه من أريد من خلالها، أعبر عما أخشى قوله، وأخرج صرخاتي المكتومة، التي إن لم تخرج ستخنقني، والتي لا أستطيع إخراجها من فمي، فتخرج من قلمي نيابة عنه.

أكتب لأهرب من وحدتي، لأجد ما يشغل وقت فراغي ويملأ حياتي بعيدًا عن الترهات التي قد تضر أكتر مما تفيد بكثير، ولأنها العلاج الذي يداوي جروح الوحدة، ويحصنها من

كل الأمراض المصاحبة لها، والمتمثلة في الاكتئاب والأفكار السوداء، التي قد تُدمر عقلك، وتحرق ذهنك من كثرة التفكير بها.

أكتب لأحادث غيرى من أي مكان في العالم، ممن يتحدثون مستخدمين قلمهم، ويعبرون عن أحاسيسهم بالطريقة الوحيدة التي يملكونها ولا يعرفون غيرها، ولأن هناك من يكتب ويقرأ لغيره، وأحب أن أكون أحد هؤلاء، أحب أن أشارك غيرى ممن يتشاركون نفس الموهبة وطريقة التفكير، ويا له من شعور أن تمتلك أصدقاء من نفس طينتك ويشاركونك ذات الاهتمامات.

أكتب لأعيش حيوات كثيرة بدلا من واحده فقط، والتي لا تكفيني بالطبع، فالجميع يعيش حياة واحدة، أما من يكتب فيعيش ألف حياه.

أكتب ليظل حديثي موجودًا دائمًا وتجربتي قائمة معلومة، يتذكرني الجميع بها ولا يختفي ذكري ولا يتبخر في الهواء مثل ملايين الناس.

أكتب لأن هناك الكثير مما يستحق الكتابة عنه، ما يحتاج النقد، وما يستحق الإشادة، المسكوت عنه ويخشى فضحه، وما يتمنى ذكر اسمه بعد إنجاز صغير حققه، أكتب لأن من

يكتب صاحب رسالة نبيلة، وأتمنى أن أكون أحدهم، أكتب لأني قد يكون لي السبق يومًا ما في تغيير جزء ولو بسيط في هذا الواقع البئيس الذي يعيشه الكثيرون، أكتب ببساطه لأني أحب الكتابة، ولم أعرف يومًا طريقًا غيرها.»

لهذه الأحاسيس ولهذا الغايات كانوا يكتبون، وكانت أقلامهم تتحرك للتعبير، ومهما تعددت الأسباب وتنوعت، يبقى سحر الكتابة ونداءها الأخاذ، الذي لا يتوانى عنه أصحابها وهم يلبون معشوقهم العظيم وهو القلم

لقد كنت دومًا أقول في نفسي: أكتب من أجل الكتابة، من أجل عشقك للإبداع.. لإيمانك أن الحياة إبداع، وأنك لابد أن تساهم فيها بنصيب.. ليس شرطًا أن يشهد لك من حولك أنك مبدع، يكفي أن ترى ذلك من نفسك فتؤمن بإمكاناتك وتثق فيها.

لقد كان هناك في تاريخنا من آمنوا أن الكتابة جهاد، ولابد لهم أن يضربوا فيه بسهم وافر، ويكونوا أبطالاً في ميدانه، فأخذوا على عاتقهم يدونون ما تحويه نفوسهم من علم، فكانت هذه المجلدات الضخمة الكبيرة التي تمثل اليوم تراثًا تفاخر به أمتنا كل الأمم، تراث يحفظ لها تاريخها ومجدها، ويسجل لها حضارتها غير المسبوقة في رقيها وسموها بين العالمين، بالقلم وحدة صور هذا التاريخ العظيم الذي يربطنا اليوم بما سلف

لنا من المجد والسيادة والعلو بين الأمم.!

لا شك أن تحديد الغاية منذ البداية، أمر مهم، يعمل على توجيهك بحماس، ودفعك بمزيد من الاهتمام إلى الغاية التي تسعى إليها، ومن هنا دومًا نحرص على تجديد النية، حتى لا يغيب عنا الهدف الذي نتوق له ونرمي إليه.

والكتابة فوق أنها سعادة ومتعة لصاحبها، وفوق كونها غاية سامية تؤصل لمعاني البر والخير وتعبر عن إبداع الانسان، إلا أنها سلاح ذو حدين، فيمكن لصاحبها أن يستخدمها كأداة تدعم الشر، وتؤيد البغي، وتدعم الظلم والجور، ويكون قلمه موجهًا ضد قومه، ودينه وعقيدته وثقافته وتقاليده، وحربًا ضارية على تراثه وقيمه، وهذا ما نجده في مصر في صفوف كثير من العلمانيين والشيوعيين والملحدين، الذين قاموا في وطنهم الإسلامي، يحاربون عقيدته وتراثه وإرثه التليد، ويردونه إلى حضارات الوثنية المظلمة، بعد ما أشرق على وطنهم نور التوحيد، الذي ينعتونه بالظلام والتخلف والرجعية، وفي قصيدته "لماذا أكتب" يجيب الشاعر نزار قباني عن هذا التساؤل، الذي يتضح في متن الشعر بأنَّه كان مؤرِّقاً له في لحظة ما، يقول نزار: أكتبُ كي أفجر الأشياء، والكتابة انفجار

أكتب كي ينتصر الضوء على العتمة، والقصيدة انتصار.

وفي مكان آخر من القصيدة يقول: أكتبُ حتى أُنقذ العالم من أضراس هولاكو، ومن حكم الميليشيات، ومن جنون قائد العصابة، ثم يقول:

«اكتبُ حتى أنقذ الكلمة من محاكم التفتيش، من شمشمة الكلاب، من مشانق الرقابة».

ويوضح صاحب نوبل الأديب التركي (أورهان باموق) أسباب الكتابة لديه بالقول: «أكتب لأن تلك رغبتي، أكتب لأني لا أقدر على القيام بشيء آخر غير الكتابة، أكتب كي أناقش بعض الآراء التي وردت في كتبي، أكتب لأني غاضب منكم جميعاً، من العالم كله، أكتب لأنه يروق لي أن أنزوي في غرفتي اليوم كله، أكتب حتى يعرف العالم أجمع أي حياة عشنا، وأي حياة نعيش، أكتب لأني أحب رائحة الورق والحبر، أكتب لأني أؤمن فوق ما أؤمن به، بالآداب وبفن الرواية ومن ثم بالصحافة، أكتب لأن الكتابة عادة وشغف»

وهناك من يقبل على الكتابة، لأنه يحبها ويريد أن يكون كاتبا مجردا عن الهوية، فهو يكتب للكتابة وحدها لا يخدم بها إلا متعته ونفسه، ولا شك أن هناك فرق كبير.

وهناك كتاب يكتبون ما تمليه عليهم عقولهم وأحاسيسهم من الخواطر، لكن عقولهم فارغة من الفكر والرؤية والفلسفة

والتأمل، ولو أنها كانت كذلك، لرأى هؤلاء أنفسهم يفعلون شيئًا عظيمًا، ولرأوا من أقلامهم ما يُبهر الدنيا كلها.. ومن ثم لابد للكاتب أن يُصقل قلمه بالقراءة والتفكير، وتبني الرؤى والنظريات والاتجاهات التي يُثمر فيها قلمه.

كما أن معرفتنا بلماذا نكتب، تُسهل علينا كثيرًا في تعاملنا مع المنعطفات التي تواجهنا في مسيرتنا مع القلم، من شوائب اليأس والفتور، والشعور أحيانا بالفشل، الوقوف على الغاية من الكتابة، يمثل لنا مقاومة فتية لكل هذه المحبطات، سواء كنت تكتب للمتعة الذاتية، أو لنصرة رسالة حياتية، أو تكتب لتؤدي عملاً يُطلب منك، أو للتميز على من حولك، وإرضاءَ مقامك وكبرياءك.. ستكون كل هذه الغايات محفزًا قويًا يعلو ألف مرة على كل شعور، يريد إقعاسك وضمور أقلامك.

لعل السعادة الكبرى تكتمل لو كان الكاتب يخدم بقلمه رسالة، أو يفني مداده في التعريف بقضايا أمته، وآلامها ومحنها، الشعور وقتها مختلف كثيرًا، عن مجرد شخص يكتب للمتعة فقط، وفرق كبير بين من يكتب ليمتع الناس، وبين من يكتب ليوعي الناس، ويرشد الجماهير، ويوقظ العقول والقلوب.

هل أدركتم يا أصحاب الروايات؟ أن قصصكم ورواياتكم يمكن لها أن تحمل هما وتبوح برسالة، بدلا من أن تكون للمتعة فقط، ولعل بعضهم يجعل المتعة في حد ذاتها رسالة..

فهو وما يعتقد، وحول الدوافع التي تحث المرء على الكتابة، طرح (جورج أوريل) أربعة تصورات يجب تأملها وهي:

١ - الأنا المطلقة. الرغبة في أنْ تبدو ذكياً ومتحدثا لبقا، ويتحدث الآخرون عنك ويذكرك الناس بعد وفاتك، وأنْ تسترجع بلوغ رشدك، الذي اختطفك في الطفولة، الخ.. الخ.. وأن تتظاهر بأنَّ كل هذا ليس دافعاً، دافعاً قوياً. وهؤلاء الكتّاب يشتركون في هذه الصفة (الأنا المطلقة) مع العلماء والسياسيين والقانونيين، والجنود، ورجال الأعمال، وباختصار مع كل النخب الإنسانية. وفي المقابل فإنَّ الدهماء الغفيرة لا تتسم بالأنانية، أو الأنوية، فبعد الثلاثين من العمر يتخلى الكتّاب عن المشاعر الفردية تقريباً، وبالتالي يكرّسون حياتهم بشكل رئيس من أجل الآخرين، أو ببساطة يتخندقون تحت كدح الحياة.

٢- الحماس الجمالي. الإحساس بجمال العالم الخارجي، أو بمعنى آخر، الإحساس بجمال الكلمات، ترتيبها بشكل صحيح، والاستمتاع بتأثير صوت ما في التجربة، التي يشعر المرء بأنها مفيدة.

٣ - الدافع التاريخي. الرغبة في رؤية الأشياء كما هي في اكتشاف الحقائق وخزنها لتستخدمها الأجيال القادمة.

٤ – الدافع السياسي. وتقوم على الرغبة في دفع العالم باتجاه معيَّن، لتغيير فكرة الاخرين باتجاه معين، لنوع المجتمع عن طريق الكفاح، ويمكننا القول: ليس ثمة كتاب خالٍ حقا من النزعة السياسية.

ويمكن أن نلاحظ كيف أنَّ مختلف هذه الدوافع يصارع أحدها الآخر، ويختلف استخدامها من شخص إلى آخر، ومن زمن إلى زمن.

ماذا نكتب؟

شيء رائع أن تكون صاحب رسالة، وعمل عظيم أن تكون كاتبًا تخدم بقلمك وبيانك هذه الرسالة.. القيم والفضائل والأخلاق التي تزن وتزين وترتقي بحياة الناس، في حاجة ماسة للأقلام التي تعبر عنها، وتؤصل معالمها، وتثبت وجودها، وتنشئ دعوتها.. المصلحون الذين قاموا في حياة الناس على مر التاريخ، لم يستطيعوا الاستغناء عن القلم، لتبليغ رسالتهم وأفكارهم ودعواهم، فكانوا يراسلون وينشرون، وينشئون الصحف التي تضم الأقلام التي تتبنى رسالتهم وتشرح غايتهم، وتدعو لإصلاحهم، كثيرون يبحثون عن غاية الكتابة وأهدافها، ولماذا يكتبون، وتتعدد مشارب الرائين في هذا المضمار، فنرى كثيرًا منهم، يغفلون معنى الرسالة، فترى أحدهم يقول: أكتب لنفسي، أو أكتب للمتعة، أو أكتب لأنني أريد أن أكتب، لكنه لو نظر إلى نفسه وتساءل: ماذا أكتب؟ لتغيرت كثيرًا من المفاهيم والميول لديه ككاتب، كثيرون يكتبون للفخر والتباهي، والرغبة في تصفيق الجماهير، وغيرهم يكتب للاسترزاق من وراء القلم، ولفت أنظار الناس، والتعالي في الأرض، وكل هذه صور مخدوعة وغائبة عن القلم الحقيقي، والكاتب الرائد الرسالي، الذي

يكتب ليهذب الناس، أو يرشدهم أو يبصرهم، إنما يقوم فيهم مقام الأنبياء، الذين جاؤوا للدنيا لترسيخ معالم القيم والفضيلة والأخلاق الحميدة، ربما تكتب أدبًا رصينًا تمتع به نفسك، أو تمتع به الآخرين، وهذا أمر محمود، ولكنه اتجاه لا يرقى أن يكون رسالة، تنذر لها وقتك وجهدك وحياتك، في وقت نرى الناس، فيه أحوج ما يكونون لكل قلم شريف حصيف ينقذهم من كثير من البلاء الذي حل بهم في الحياة.

إن الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا، ما عرفهم الناس وساروا وراءهم، وتبنوا إصلاحهم، إلا عن طريق القلم والصحف، التي دعت لأفكارهم، وحملت علمهم للراغبين والمريدين.. حتى الظلمة والطغاة، في حاجة ماسة للأقلام المنافقة، التي تؤلف حولهم الناس وتغرر بعقول الجماهير، وتظهر لهم محاسن هؤلاء الظالمين، وهم بلا محاسن، وتخاطبهم بصواب قراراتهم وإجراءاتهم، وهؤلاء كما نقرر دائمًا خونة مجرمون، يخونون أقلامهم، ويخونون الله والإنسانية والضمير والأمة.

إن أصحاب كل غاية يستجمعون كل أسلحتهم لنصرة غايتهم، فيلجؤون للقلم، حتى وهم غير هواة للكتابة، لأنه أعظم الأسلحة التي يخوضون بها معاركهم.. وتقودهم للنصر في نزالهم، وتُحقق لهم مقاصدهم.

من المهم جدًا أن نرشد الكتاب المبتدئين إلى هذا التساؤل:

(ماذا نكتب؟) وكأننا به نلفتهم إلى أن يكونوا أصحاب رسالة، وحملة غاية، وجنودًا في جيش الأخلاق والقيم.

ربما تكون في بيئة أسيفة، لا تدعك وحريتك فتكتب ما تشاء، وتعبر عما تريد، وهنا تقصف قلمك، وينتهي ويضمر حتى الموت، لأنه يُحرم مما يريد التعبير عنه.. أما إذا كنت في بيئة حرة، تدعوك أن تعبر وتشجب وتدين وتتكلم وتتحدث عن كل ما تريده، فإنك ستصيب بقلمك كل غاية نبيلة، ورسالة كريمة، وبحكم أن الكلمة مسؤولية وأمانة، فقد وجب لكل صاحب قلم أن ينظر فيما يكتب ويخط ببنانه، فمن الناس من يكتب للدنيا، ومنهم من يكتب للآخرة، ومنهم من يكتب للدنيا طمعًا في الآخرة، من الناس من يكتب لنفسه وأهوائه وأطماعه، ومنهم من يكتب للوطن والمجتمع ورفعة الأمة ورقي الإنسان.. وإلى الذين يحيرهم هذا السؤال، ويدورون حول أنفسهم وهم تائهون نقول لهم:

* لتكتب أقلامكم في خير البشرية وسعادة الإنسان، عن القيم والأخلاق التي ضاعت، وندرت هذه الأيام.. ذكّروا الناس بها وادعوهم إليها ونادوا بقيامها، حتى تحققوا مجتمعًا ناضجًا سليمًا عفيًا متينًا، يقوم بناؤه من قواعد الفضيلة.

*لتكتب أقلامكم عن الفساد والمفسدين، افضحوهم وحذروا الناس منهم، واكشفوا زيوفهم وخداعهم للأمة،

ونهبهم لثروات الشعب المسكين المطحون، واجتثوا بسنان أقلامكم جذور فسادهم التي ضربت في أطناب البلاد، زلزلوا الأرض من تحتهم، واهدموا صروحهم التي قامت على السرقة واللصوصية.

* لتكتب أقلامكم عن الحرية التي يفتقدها وحرم منها الانسان، وصار يعيش في ظل الجبارين الطاغين بلا شفقة ولا رحمة، هؤلاء الذين حوّلوا حياة البشر إلى غابة يأكل القوي فيها الضعيف، ويطغى الكبير فيها الصغير، ويستقوي فيها أصحاب الجاه والنفوذ على الحيارى المستضعفين.

* لتكتب أقلامكم عن المحسوبية التي تحرم أهل الكفاءة وذوي الخبرة أن يتقلدوا المناصب والمواقع التي تليق بهم، وتحرم الوطن أن يسوده التقدم والرخاء، حينما تصدر ضعفاء العقول ومعدومي القدرات مواقع الإدارة فضلوا وأضلوا وفتحوا الطريق للمنافقين والأفاقين ليستبيحوا مصير الناس ومستقبلهم.

* اكتبوا عن الدين الذي تُحارب قيمه، ويهان دعاته، ويجرد من أصوله، وتزيف حقائقه، ولا يُقام له وجود في أرضه وبين أهله، واجهوا من يحاولون طمسه والقضاء عليه، والنداء بكل فكر يعاديه ويضاده ويحارب كتابه.

* اكتبوا عن القادة المخلصين الطاهرين الذين يُضيق عليهم ويمنعون من الظهور والحديث والكتابة والنشر ومخاطبة الناس، وإفساح المجال للمارقين المنحطين المنحلين من الدين والفضيلة، ليكونوا هم قادة الفكر وأرباب الثقافة، والأبواق التي تشكل عقولنا وتوجهنا لما فيه شقاؤنا وتعاستنا.

* لتكتب أقلامكم عن الشباب وغايته ودوره ومستقبله وتوجيهه، في أمة يضيع شبابها بمكر الاستعمار والتغريب، والمؤامرات التي تحاك ضده ليل نهار، حتى يفقد الثقة في نفسه وتراثه وتاريخه وحضارته ووجوده، ثم يفقد بعدها رجولته وكبرياءه، فلا يضطلع بواجب، ولا يتحمل مسؤولية، ولا تنبني عليه أي آمال أو طموحات ترجوها أمته العظيمة.

* لتكتب أقلامكم عن القدوة الغائبة والضائعة في الأخلاق والحكم والتعليم والتربية والتوجيه، وكل مجالات الحياة، حتى خرجت مجتمعات مهترئة ضائعة، تسيطر عليها المادة، وتحكمها المصلحة، واشجبوا الإعلام الذي يعمل ليل نهار على تشويه القدوات الحقيقية، واستبدالها بقدوات ساقطة منحطة، حتى يغير ثوابت الأمة ويعبث بتقاليدها.

* اكتبوا عن الأسرة السعيدة وأسس الزوجية الهادئة المتناغمة، التي يتوافق فيها الرجل والمرأة، ويتعاونان فيها على العيش الهادئ القويم، ليخرج من صلبهما أبناء مستقيمون، يشكلون

لبنة صالحة، تسعد بهم بلادهم وأمتهم والإنسانية كلها.

* اكتبوا عن التاريخ، وكيف يُزَيف ويُزور، حتى لا تكون فيه العبرة، ولا تؤخذ منه التجربة، وتُخفى بتزييفه كثير من الحقائق، التي تخدم أهل الأطماع والأهواء، والراغبين في تجريدنا وحرماننا من أي فخر صنعه جدودنا وأسلافنا، وقطع أي جذور لنا بالماضي التليد، حتى لا ينفث فينا بعزته وأنفته، فنثور ونفور، ونسحق في طريقنا كل الطامعين الطاغين.

* اكتبوا عن أعلام أمتنا وعظمائها الذين يتم التعمية عن تاريخهم، ووأد معالم القدوة في سيرتهم، حتى يُظهروا للدنيا أننا أمم متخلفة بلا قادة ولا مصلحين، وأن الطريق الأمثل للنهوض والتربية في تقليد عظماء الغرب ومحاكاة مصلحيهم وقادتهم.

علينا « أن نسخر أقلامنا للحق والحقيقة والصدق والأمانة والدافع عن المظلومين والفقراء والمساكين ونسخرها كذلك للنصيحة المخلصة والرأي السديد والتوجيه الصحيح والنقد الهادف البنّاء الذي ينهض بالوطن والمواطن وموظفيه وجميع منشآته ومؤسساته ومرافقه وخدماته وأعماله ومشاريعه، والذي يجمع ولا يفرق وينصف ولا يظلم و يعدل ولا يجور ويعزز الوحدة واللحمة الوطنية والأخوة الإسلامية بين أفراده ويدفع بهم نحو النجاح والتميز والتطور والتفوق

والوصول إلى المعالي .

*ولنجعل من أقلامنا سلاح يتصدى للتعدي بكل أنواعه وأشكاله وأساليبه وطرقه ونبذ به ونحمي مجتمعنا من العنصرية والطائفية والتطرف والغُلو والفتنة والكذب والفكر الضال والارهاب و التفرقة وشق الصف والجريمة بكل أنواعها وطرقها وأساليبها.

*وكذلك نجعل أقلامنا سلاح في وجه الغيبة والنميمة وشهادة الزُّور، والتطاول على الآخرين، والاستهزاء بهم والتعالي والإفتراء عليهم، وظلمهم وسلب حقوقهم ومماطلتهم وحرمانهم منها والمساس بأعراضهم وذمهم، وذكرهم بما يكرهون، وبما ليس فيهم وبما يضر بسمعتهم سواء بالتصريح أو التلميح.. ولنتذكر إن القلم نعمة جليلة ومسؤلية جسيمة، وأمانة عظيمة، سوف نسأل عنها يوم الله العظيم يوم لا ينفع مال أو بنون إلا من أتى الله بقلب سليم علينا أن نؤدي حقها ونقوم بواجبها بصدق وإخلاص»

أشياء كثيرة جدًا يمكن أن نكتب عنها، وتنتظر هي من يكتب عنها، ويتحمل عبء النداء لها والدعوة إليها.. وأمام كل هذه المحن، يتعجب الإنسان حينما يجد من يقول: في أي شيء أكتب، ويحزن حينما يجد من يكتب في أمور تافهة لا قيمة لها ولا أثر، ولا نفع ولا جدوى، سوى أنها تخدم العدو، وتهمش

العقول، وتغيب الوعي.

ولعل مواقع التواصل الاجتماعي اليوم، أتاحت للكثيرين أن يكونوا كتابًا، ومن ثم رأينا كثيرًا من الغثاء، لأن من يكتبون ويتحملون مسؤولية الكتابة، لم يدر بخلدهم يومًا هذا السؤال، ولم يعوا في أنفسهم مسؤولية القلم وأمانة الكلمة، وليتهم يخاطبون أنفسهم وعقولهم حول ما يكتبون، ومن ثم ظهرت كثير من السلبيات في التفكير والوعي والعلاقات والتعاملات، ومن هنا كان لابد لطرح هذا التساؤل والتنويه إليه.

رائع جدًا أن تكون أديبًا روائيًا، تكتب القصص والروايات المؤثرة البليغة ببيان عذب، وتعبير مؤثر، ولكن الأروع منه، لو حشوت هذه الرواية، ودعمت هذه القصص، بأفكار وفضائل وسجايا وأخلاق، تشير إليها بعباراتك ورؤاك ووقفاتك وتلميحاتك ومقاصدك، فبعضهم يخدم وطنه وقضيته، ومصالح بلاده، لا بالسلاح والعتاد، وإنما بالقلم والأدب والرواية.!

إن إسرائيل تؤمن بالقلم والأدب ودوره الفريد في صياغة العقول وإلهامها ما تريده من غايات، وليس هذا ما تفعله مع الأطفال وحدهم، وإنما هو نفس سياستها مع الكبار، حيث تدرك سحر الأدب في تشكيل عقول الشعوب، ولم تجد مناصًا

من ركوبه وامتطائه حتى تجمل باطلها، وتوهم شعوب العالم بحقها المزيف، تأمل ما حدث للكاتب المبدع (عبد المنعم الصاوي) في تلك الحادثة التي يرويها لنا فيقول:(قبل نحو ثلاثين عامًا، أُتيح لي إعادة اكتشاف دور الأدب في الصراع الدولي، وقدرة رواية على أن تفعل في الهند، ما لا تستطيع اثنتان وعشرون سفارة عربية، ومكتبان أحدهما لجامعة الدول العربية، والآخر لمنظمة التحرير الفلسطينية.

كنتُ في زيارة لإحدى كبرى مزارع البن في جنوب الهند، حين كلّف صاحب المزرعة الثري، ابنته الشابة بمرافقتي، وزميل صحافي فلسطيني يحمل الجنسية الأردنية في جولة بالمزرعة، أثناء الجولة سألت الفتاة عن البلاد التي ننتمي إليها، فقال لها صديقي -الذي ينتمي إلى عائلة فلسطينية عريقة، قدمت أحد رؤساء الوزارات في الأردن- أنا من فلسطين، فاتّسعت حدقتا الفتاة، وتساءلت بدهشة: أين تقع تلك الفلسطين؟! حار صديقي في الشرح، ورحت أحاول مساعدته، فرسمتُ لها خارطة فوق الرمال، وأشرت إلى موقع فلسطين على الخارطة، وإذا بالفتاة تصرخ: لا.. لعلّك تقصد إسرائيل؟! وعندما سألتها: من أين سمعت بإسرائيل؟ قالت: قرأتُ رواية ليون أوري (Exodus، أي (سفر الخروج)، إنها الأكثر مبيعًا في الهند، بيعت منها ملايين النسخ، ثم قرأتُ للكاتب ذاته رواية

(وا قدساه)، آنذاك لم تكن لإسرائيل سفارة بالهند، فيما تفسح نيودلهي صدرها لاحتضان مكتب لمنظمة التحرير الفلسطينية، يقضي رجاله معظم وقتهم حول مسبح فندق (أوبروى) بنيودلهي؛ ليكحلوا عيونهم -على حد تعبيرهم- بمشاهد نساء شرق أوروبا اللائي يمضين يومهن بالمسبح، بانتظار عودة أزواجهن (الخبراء الأجانب) من أعمالهم.

(سفر الخروج) للأديب الأمريكي اليهودي (ليون أوري)، فعل لإسرائيل ما لم تفعله كل سفارات العرب، وكل مكاتب الجامعة العربية، وكل مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية.)

إن القناعة الكبيرة والذاتية بأن الكتابة رسالة، تجعل منك كاتبًا نافعًا للمجتمع، خادمًا لغاية الأمة، محققا لمصالحها، وتوجد في نفسك تقديرًا كبيرًا لما تكتب، والذين يتاجرون بأقلامهم وينافقون بمدادهم يخونون أمتهم وأنفسهم، بل يخونون الكلمة التي تعد خيانتها من أعظم مراتب الخيانة.

كيف تكتب؟

ننصح أولئك الذين يريدون أن يكونوا كتابًا، ويبدؤون رحلتهم مع القلم، ولا يعرفون ما يكتبون بأمرين اثنين أولهما: أن يشغلوا أوقاتهم بالقراءة المتواصلة، ولا تفارق أعينهم رؤية السطور، واحتضان الكتب، وقد قيل: من أراد أن يكتب فعليه بثلاثة أشياء هي: القراءة ثم القراءة وشيء ثالث اسمه القراءة، ويقول العقاد: من يريد أن يكتب صفحة، فعليه أن يقرأ خمسين صفحة، ويقول نجيب محفوظ: ليس الكاتب الحقيقي هو الذي يكتب، ولكن الكاتب الحقيقي هو الذي يقرأ.

ثانيا: الممارسة المستمرة للكتابة والإمساك بالقلم، والإيمان أنك تملك قلمًا يستطيع التعبير، حتى لو فشلت كثيرًا في محاولات هذا التعبير، فلا تتخلى عن القلم وتيأس منه، فهذه الممارسة مع هذه القراءة التي تشكل الوعي والتفكير، ستقودك يومًا لتكون كاتبًا جيدًا بارعًا.

ويروي عن لطفي السيد أنه قال: « كنت ألقى حافظ في أول عهده بالشعر وكان يُسمعني كثيرا من شعره فلا يعجبني، فقلت له ذات يوم: أرح نفسك من هذا العناء فلم يخلقك الله شاعرا، ولكنه لم يقبل نصحي وحسنا فعل فمازال يكدح حتى

أرغم الشعر على أن يعنوا له ويصبح شاعرا»

وهكذا تكون فائدة الاستمرار والمواصلة وتكبد العناء من أجل ترويض القلم وإخضاعه.

والقراءة لها فوائد عظيمة على الكاتب، ففوق أنها تثري وعيه، فإنها تمده بالألفاظ والمفردات، وإحسان الصياغة والتراكيب، وتساعده في امتطاء الحرف، وتسخير الكلمات والسيطرة على البيان.

والقلم له سحره الخاص، وقد يحول الخير إلى شر، والشر إلى خير، والتافه إلى هام، والهام إلى تافه.. وقد تقرأ موضوعًا لا قيمة له في ميزان العقل والعلم، إلا أنه يأسرك ويحظى باهتمامك، لأنه كتب بلغة عالية، وأسلوب معبر، وصياغة بارعة.. وعلى العكس.. قد تقوم فكرة جيدة وموضوع مهم، لكنه ينال الإهمال لأن عارضه كتبه مجردًا من الاحترافية في الكتابة والقدرة على تسخير القلم، ليُعظِم القضية ويجذب إليها الانظار والاهتمام.

وعلى المبتدئين كذلك إذا أرادوا الكتابة وتعلمها، أن يختاروا موضوعًا محددًا يكتبون فيه، ويجمعون حوله المعلومات التي تخصه وتساهم في بنائه، ثم يقسمونها إلى عناصر مرتبة، ثم يقومون بعملية ربط وتأليف بين هذه العناصر والأفكار التي

استقوها من إنشائهم أو خبرتهم أو من المراجع والمواقع التي تتناول الموضوع، ليظهر في النهاية موضوع المقال مع زيادة بعض الرتوش والإضافات المناسبة، ويتحول المكتوب إلى شيء لائق مرضٍ.

ومن الممكن أن تتبع هذه الطريقة فترة من الزمن، لن تطول، لكنها ستسهم سريعًا أن يواصل الراغب في الكتابة مسيرته في يسر وسهولة.

ومن الإرشادات المهمة للكاتب المبتدئ، أن يتعامل مع ما يكتب على أنه قصة تُروى، ويبدأ في سرد أحداثها الزمنية بالترتيب، وعند آخر أحداثها، تظهر صورتها كاملة على الورق وقد صارت موضوعًا شيقًا.

ولعل أول حافزٍ للكتابة، هو الشعور الداخلي، والإحساس بالرغبة في التعبير، والإمساك بالقلم دون الخضوع لأي قواعد معينة في الكتابة، وهناك من يرفض الخضوع لأي قوالب أو تصميمات من شأنها أن تعينك أو تساعدك على كتابة شيء منظم ومنسق، ويدعو الرافضون لهذه الخطوات، إلى الافساح الكامل لعملية الشعور والحس الذي يريد أن يعبر عن خواطره بالقلم.

يقول كامل الشناوي: «وأنا لا أعرف كيف أكتب دون أن

أحس لذعة الشوق وحرارته؟»

يقول الدكتور (علي الوردي) في خوارق اللاشعور:

«من المخجل حقًا أن نجد معلمي اللغة العربية في مدارسنا يدربون تلامذتهم في فن الإنشاء والكتابة تدريبًا مغلوطًا، فهم يعلمون التلاميذ كيف يراعون التسلسل المنطقي في كتاباتهم، ويهملون أثر الدوافع اللاشعورية فيها، فتراهم يضعون لإنشاء المقالة نموذجًا قياسيًا متكلفًا، يبدأ بالديباجة وينتهي بالخاتمة، من غير أن يلفتوا أنظار التلاميذ إلى أهمية وحي الخاطر، الذي لا يستسيغ ديباجة ولا خاتمة، ولا ينصاع لقياس ولا تسلسل.. ينبغي أن ينتبه المنشئ إلى الحقيقة الكبرى في فن الكتابة: وهي أن الإبداع فيها يأتي عفو الخاطر – أي نتيجة الانبثاق اللاشعوري، وكل شيء يعرقل عفو الخاطر يؤدي بدوره إلى قلة الإبداع»

ولعل حديثه صائب، لكنني أنتقد إهماله للقوالب، ومن الممكن أن نجمع بين الأمرين، فنفسح المجال للخاطر والحس والوجدان أن يمتطي القلم وينطلق، ثم بعد ذلك نُخضِع المكتوب لعملية القوالب والتنسيقات الفنية من المقدمة والمتن والخاتمة.

فالفكرة عندما تسيطر على خاطرنا، لا يشغلنا وقتها إلا وضعها

على الورق، قبل ضياعها في مشاغل الحياة وتتابع الاحداث.. لا نهتم كثيرًا بانتقاء المفردات القوية الرنانة، أو الأكثر تعبيرًا.. وبعد ان نترجم فكرتنا إلى أحرف وكلمات.. نشعر بالراحة النفسية، ثم ننظر بعد حين إليها بعين القارئ الناقد، وتلك حالة أخري.. فأنت حينما تكتب ما يجول بخاطرك، تكون كاتبًا يفكر في جوانب فكرته، كيف يوضحها ويدعمها بالمعلومة إن أمكن، وبسرد مواقف أو أحداث أو تجارب سابقة، تؤكد فرضيتك أو وجهة نظرك، أو رأيك؟ لكنك عندما تقرأ، يكون عقلك ونفسيتك في حالة استنفار للتلقي، ولديك بعض أدوات التقييم والنقد، نلتهم من قراءات سابقة كثيرة، فلا شك أنك وقتها، تتوق إلى تجويد ما كتبت وتجميله.

والإبداع في الكتابة كما ذكرنا يحتاج الى مراحل:

أولاً: البحث وجمع المعلومات وتصنيفها وهي مرحلة ضرورية، وتسمى مرحلة الخزن، فالعقل لا يعمل إن كان فارغًا من المحتويات، وهي المواد الخام التي تصنع منها الأدوات المتنوعة.

ثانيًا: ترك المعلومات المخزنة في الذهن لكي تختمر، وبعدها سيجد دافعًا لا شعوريًا للكتابة ولا سبيل إلى إيقاف هذا الدافع – وهي مرحلة الإلهام – مرحلة اللاشعور.

ثالثا: التنسيق والتهذيب والتزويق، وهي مراجعة ما كتب في ساعة الإلهام، فيحذف جزءًا ويضيف جزءًا، لأنه سيفكر فيما سيقرأه الناس له، وهكذا فقد انتقل من مرحلة الإلهام اللاشعوري، إلى مرحلة الشعور الاجتماعي والاتصال بذهن القارئ.

رابعا: أن يكون هناك اهتمام كبير بالموضوع الذي تكتب فيه، وأن تعطيه كل كيانك وجهدك بالبحث والتأني والصبر والجمع والإحصاء، ولا تتعجل النشر حتى تكون مطمئنًا تمام الطمأنينة لجودة ما كتبت، وجمال ما قدمت، حتى لا تُثير عليك الناقدين أو الحاقدين أو الساخرين، ولعل هذا التأني من صفات أديب العربية الأكبر مصطفى صادق الرافعي، حيث وصفه تلميذه العريان بقوله: «إن الرافعي لكثير الأناة والتأنق فيما يكتب، فلا يبدأ في إنشاء موضوعه، حتى يخلي له فكره أياما وليالي، يبحث ويوازن، ويزاوج ويستنبط؛ ثم يتهيأ للكتابة، وقد استوى الموضوع في فكره، كأنما قرأه لساعته في كتاب.. كان يُجهد نفسه في الكتابة، ويحمل من همها ما يحمل، وما أعرفه حاول مرة واحدة أن يسخر من قرائه، أو يشعوذ عليهم ليملأ فراغًا من صحيفته يريد أن يمتلئ؛ على أنه أحيانًا كانت تدعوه دواع إلى كتابة لم يتهيأ لموضوعها، أو يفرغ له باله، فيمليها على عجل بلا إعداد ولا توليد، لكنك كنت تجد عليها

طابعه، وتعرف أنها له، ولولم يكن عليها اسمه»

وفي البدايات الأولى للكتابة، يجد المتدرب نفسه يُعاني مما يوصف بشطحات القلم، والتي تخرج به عن إطار الموضوع الذي يكتب فيه، إلى أمور أخرى تعلن فقدانه للسيطرة على القلم، فيضل عما يريد قصده والتعبير عنه، ويُخل بالوحدة الموضوعية، التي يكتب في إطارها.. وهذا ما أسميه دومًا بشطحات القلم أو جموح القلم، ومع التدريب المستمر، يحكم القلم سيطرته على الورق، فلا تتسرب إليه مثل هذه الشطحات مرة أخرى، حيث يكون أكثر تركيزًا وتحديدًا لما يريد، وهذا ما تُفيده الكتابة المستمرة.

أحيانا تأتينا الأفكار التافهة، فهل يعني ذلك أن نكتب فيها ونحفز أقلامنا أن تسطر شيئًا منها؟! لا شك أن هذا خطأ كبير، وأنك بهذا تكتب شهادة وفاتك ككاتب، وتسقط من عين جمهورك، فليكن الكاتب يقظًا في كل ما تخطه يداه.

ومن الأمور المهمة في مسيرة الكاتب، أن يدرك في نفسه دورة التطور، وأنه يتقدم، وأنه مع الأيام يتقدم أسلوبه من الحسن إلى الأحسن، وأنه لابد أن يتابع ذلك من نفسه عن طريق الاحتفاظ بكتاباته القديمة وأرشفتها، حتى يسهل له الرجوع إليها، ليعقد مقارنة بين الحاضر والماضي، وكيف كان وإلام وصل؟ ولعل هذا من عوامل التحفيز، التي تشجع الكاتب

على الاستمرار والاهتمام.

عليك أن تنظر للأمر دومًا بسهولة كبيرة، خالية من كل تعقيد، فلا شيء يستحق التعقيد، أنت تريد أن تكتب وهناك موضوع تريد أن تكتب فيه، ومن ثم.. لابد من وضع نقاط واضحة ومهمة ومعلومة، وأبرزها مجموعة من الأسئلة المحورية التي لفت إليها بعض الباحثين في هذا الشأن وهي:

- ما هو الموضوع الذي أكتب عنه؟

- ما أهميته وفائدته؟

- كيف أتناول عناصره وأهدافه؟

- كيف أربط بين هذه العناصر والأفكار؟

- ما هي الخطوات اللازمة للكتابة من المقدمة والنص والخاتمة؟

- من أين أستقي معلوماتي عن الموضوع؟

-كيف أكتب هذا كله بأسلوب جيد لا يصيب بالملل والفتور؟

وأنت إذا نظرت لهذه العناصر، تجدها قد ركزت بقوة على الموضوع نفسه، دون التوقف أو التقيد بمسألة الأسلوب، لأن أسهل شيء تستطيع تحصيله في مسألة الكتابة هو الأسلوب، حينما تحفظ كثيرًا من المفردات والألفاظ والتراكيب والأشعار،

التي تمثل الحصيلة اللغوية التي تقوي أسلوب الكاتبين، لكني ركزت أكثر على الفكرة التي تنطلق بالقلم في عالم الكتابة، فالأفكار هي أساس كل شيء، ومن ثم نريد صقل هذه الأفكار، وتقوية الفكرة بالمادة اللازمة، التي تقنع القارئ بجودة من يكتب، واهتمامه وعنايته بالتفكير السليم والكلام المنطقي، والذين يهتمون بالإنشاء على حساب الأفكار لا ينجحون، فكلا الأمرين لابد منهما لإيجاد كاتب متميز، ولابد لهما من تدريب عليهما.. ومهما كان المرء بليغًا ذا بيان رشيق، فإن الوضوح يبقى هو سيد الموقف، فكلما كان عرضك وأسلوبك واضحا سلسا بسيطا، كلما اعتنى الجمهور بما تكتب، وأقبل عليك، واهتم بقلمك..وهناك ثلاثة عناصر ينبغي مراعاتها قبل الكتابة وهي:

أولا: تحديد الأهداف من هذه المقال المكتوب.

ثانيا: تحديد الجمهور الذين يوجه إليهم الكاتب مقاله.

ثالثاً: اختيار فكرة الموضوع المناسبة.

وهذه الأسس الثلاثة، لابد من مراعاتها حتى تحقق الغاية التي ينشدها الكاتب، والهدف المرجو من نفع القراء وتقديم الجديد على سن قلمك.. وكل من يُحب القلم ويهوى الكتابة، تراه حينما يكتب يتعثر في بعض الجمل، وتقف أمامه بعض

التصورات، ويجد نفسه عاجزًا عن التعبير أو الوصف، ويقف قلمه في نصف الطرق أو ثلثه، فإنه يستطيع أن يتجاوز هذه الوقفات المحبطة، التي تعرقل شعوره بالسعادة وهو يكتب.. ومن خلال الحذق والممارسة والتعرف على صور وفنون الكتابة، ندرك ذلك ونعرفه، فهي مراحل مجربة ومعلومة.

ولتميز الكاتب في كتاباته، ولكي تقنع القراء بقلمه، لابد من الحرص على أمور مهمة ومنها كما ورد في بعض التقارير:

١- الاهتمام بجمع الحقائق والأدلة التي تدعم فكرة وكلام الكاتب حتى تكون مصادر القوة التي تزيم كتابته.

٢- العمل على ذكر الشواهد والأمثلة، التي توحي بسعة تجربة الكاتب، وكثرة معارفه وثقافته التي يكبرها الكراء.

٣- الحرص على دعم مال الأفكار بالأرقام والإحصاءات التي يهتم لها القارئ، وتشعره بالإحاطة التامة للكاتب بالموضوع.

٤- الاستشهاد بذوي الخبرة والمعرفة في الشأن الذي يكتب فيه الكاتب، ليكملوا برؤيتهم أي محور ناقص، ويعطوا خبرتهم التي تصقل ما يكتبه الكاتب.

٥- الاستعانة بمصادر المعلومات بشتى أنواعها.

٦- عدم اللجوء إلى الإحصائيات القديمة، إذا كان الموضوع

يحتاج إلى إحصائيات، بل لا بد من الاطلاع على آخر إحصائية أو تقرير.

٧- الشجاعة في الطرح دون تجاوز للحكمة.

وقد وضع بعض الخبراء في ميدان الكتابة بعض النصائح، وأبرزوا بعض الأسباب، التي تؤدي إلى فشل الكاتب، والتي لابد من تأملها ودراستها والحذر منها، حتى نكون أصحاب أقلام مميزة وكان منها:

١- ضياع صبغة الكاتب بين كثرة الاقتباسات.

٢- ضياع فكرة الكاتب بين كثرة الاقتباسات.

٣- التطويل الممل أو الاختصار المُخل.

٤- التكلف في الكلمات والغموض في العبارات.

٥- تكرار أطروحات الآخرين بلا فائدة أو إضافة جديد.

٦- الخوف من الفشل والاستسلام للنقد الجارح.

٧- الكتابة فيما لا أهمية له.

٨- الإسراف والمبالغة وإعطاء الأمور أكبر من حجمها.

وفن الكتابة أو التأليف فوق هذا، لابد أن تحدد اتجاهه أولا في نفسك، وتنظر إلى أي اتجاه تميل، هل تحب الكتابة في الفكر

والمعرفة والعلم؟ أم تهوى الكتابة في الأدب والقصة والرواية، ولكل منهما أسلوبه وميدانه وإجراءات تمهد له.

متى تكتب؟

ليس معنى أن تقول عن كاتب: إنه كاتب مبدع أو محترف.. أنه يستطيع الكتابة في أي وقت، أو في أي موضوع يطلب منه، وكم أتعجب من أحدهم حينما يأتي إلي ويقول: اكتب في كذا واكتب عن كذا بأسلوبك الجميل الرشيق، وما درى أن هذا الجمال وهذه الرشاقة، لابد أن تنبع من قناعة نفسي، لا من قناعة غيري، وقد يكون الموضوع فعلاً مهمًا ورائعًا، لكن نفسي لا تعيشه، ولا تختمر في دواعيه، ولا تنصهر بتبعاته، ومن ثم لا أستطيع الكتابة فيه، ولو بحرفٍ واحد.!

حتى ولو كنت أبدع الكتاب، وقلمي أمهر الأقلام، هناك فعلاً أناس بهذا الحذق، فما أن تُطلبَ منهم الكتابة في أي شيء، إلا وتجد أقلامهم تنطلق كالريح المرسلة والسهام النافذة، لكن الغالبية من الكتاب، يكتبون بمزاج وإحساس وتعايش، ومنهم كذلك من تطلب منه الكتابة في شيء لا يفكر فيه، وليس على باله، ولا تعايشه نفسه، ولكنه يحتاج بعض الوقت، حتى تتعايش نفسه مع ما طُلب منه الكتابة فيه.

الكتابة الإبداعية إذن، لا تحل في النفس ولا تقذف بها أسنة الأقلام، إلا باعتدال المزاج وتهيئة الرغبة والحماسة للموضوع،

أو ما يسميه الكتاب دومًا بلغاتهم (حضور الوحي والإلهام).

في أحيان كثيرة حينما نقرأ، أو تقابلنا نصوص توحي إلينا بأفكار مهمة، يمكن أن تصاغ منها موضوعات جيدة نكتب فيها وعنها، نرى كسلا في النفس يدعونا لتأجيلها، أو كتابة بعض العناصر التي تذكرنا بها فيما بعد، حتى تناسب الوقت الملائم لنكتب عنها.. ومجرد تأجيل هذه الكتابة والتأخر عن تلبية هذا الشعور بالشروع في صياغة هذه الفكرة، إنما هو الايذان بقتلها ووأدها، وذبح الحماس الموجود لها، فحينما تعود إليها في أي وقت، لن تجد نفسك بالحماس الأول، الذي كنت عليه ساعة ورودها في خاطرك.

ومن هنا كلما كان الكاتب قادرًا على الصياغة في نفس الساعة التي اكتشف فيها الفكرة ووجدها، كلما كانت مقالة ناجحة بكل المقاييس، لتوفر كثيرًا من العناصر والمقومات التي تؤهل لهذا النجاح، وعلى رأسها الحماس والاستعداد والرغبة النفسية، والاندفاع لتسجيل هذا الشيء الجديد، الكتابة المباشرة في الوقت الذي تحل فيه الفكرة في وجدان الكاتب، تكون كتابة مصحوبة بالروح والحماس واستحضار العاطفة التي تتحد مع الفكرة، فتُخرج كلامًا ناضجًا آسرًا مؤثرًا معبرًا ذا قيمة.

من الضرورة بمكان أن تتحلى الكتابة عن أي فكرة بالروح والحماس، اللذان يمثلان عوامل الجذب والإثارة والتشويق

للقراء، وإذا خلت الفكرة وتجردت من الروح والحماس، صارت فاترة جامدة.

كان أحد الأدباء الكبار قد خطب ولده فتاة، لكنها مرضت مرضًا مزمنًا بعد ما عقد عليها؛ وأقامت زمنًا في المصحة تتلقى علاجها، وولده قائم على خدمتها وعلاجها حتى حان أجلها، فدُعي الأديب ليراها في لحظاتها الأخيرة، فجلس بجوارها لحظات وهي تحتضر، ولما ماتت وشيعت جنازتها، وذهب الناس إليه عصرًا ليعزوه في بيت صهره، لم يجدوه، وسألوه بعدها أين كنت؟ فأخبرهم أنه ترك المأتم والمعزين، ليفرغ لكتابة مقالة عن الحادثة قبل أن تذهب معانيها من نفسه وخاطره.

وكتب مقالاً يصف فيه مأساة العروس الراحلة، التي بدلا من أن تزف إلى ولده، زفت إلى القبر.. وكان تحت عنوان (عروس تزف إلى القبر)

الكاتب الجيد، هو من يمتلك القدرة على أن يرى من التفاصيل والخبايا والدقائق التي تحملها الأشياء، والتي لا يبصرها ويدرك كنهها الشخص العادي، فكأنه كما قال أحدهم: (يرى الثقوب الدقيقة بينا ثنايا الثوب الناتجة من تقاطع الخيوط وتشابكها، فكذلك عين الكاتب، تبصر ما لا يبصره العامة، وهذه القدرة تمنحه أفقًا أرحب ووعيًا أشمل، فإذا أضفنا

لذلك كله، مقدرة الكاتب على الخلق والإبداع، نجد أننا أمام إنسان مبدع موهوب)

قال تعالى على لسان السامري: (بصرت بما لم يبصروا به)

لقد تعددت الرؤى والأقاويل في معنى الإلهام.. يقول لينوارد بيرنستين: الإلهام رائع عندما يحدث، لكن الكاتب يجب أن يطور نهج أخر للأوقات الأخرى.

ويقول ستيفن كينج: الهواة يجلسون لينتظروا الإلهام.. بقيتنا فقط يستيقظون ثم يذهبون ليكتبوا.

ويقول بيتر دي فرييس: أنا أكتب عندما أشعر بالإلهام، وأتطلع لأن أكون مُلهماً كل يوم في الساعة الـتاسعة صباحاً.

أما دان بوينتر فقد فرض الإلهام وقال: لو تنتظر الإلهام لتكتب، فأنت لست كاتباً، أنت جرسون !

ويقول بييرل س.باك: لا تنتظر المزاج، لن تحقق شيئاً لو فعلت ذلك.. عقلك يجب عليه أن يعرف أن ينكب ليعمل.

ويقول ديسيديروس إرساموس: الرغبة في الكتابة تنمو بالكتابة.

هناك كثيرون يعيبون من يمسكون القلم في وقت مبكر، والحق أن هذا الاستنكار خطأ لا محل له، لأن المرء كلما صاحب القلم

باكرًا كلما كان ذلك تمرسًا وتمرينًا على الكتابة، التي يصل فيها للنضح بسرعة، ويسهل عليه امتلاك أدواتها، وربما يحق لنا النكران في حق هؤلاء الذين يؤلفون الكتب قبل نضوجهم، لكن لا نمنعهم أبدًا من ممارسة الكتابة والتعبير بالقلم.

وقوم آخرون يرون أن تناولهم للكتابة وامتطاءهم للقلم، يجب أن يكون في مرحلة النهاية، حينما يستكملون عدتهم من الثقافة والقراءة والمعرفة، حتى يكتبوا بصدق وثقل وإجادة، ولا شك أن نظرتهم ربما يقبلها العقل، ولكن الثقافة والمعرفة بحر لا ينتهي، كما أن القلم لابد أن يبلغ مرحلة الاحتراف والتمكن، وهذا لا يكون إلا بالتمرس فيه، وكذلك نجد عند هؤلاء الناس أو القراء وطالبي المعرفة، زخمًا في الأفكار والخيالات والابداعات، كيف لهم أن يئدوها ويحرموا الأوراق أن تسجلها؟ لا شك أنهم سيعانون كثيرًا، وهم يفقدون الثقافة والقراء شيئا مؤثرًا.

ضع في نفسك أن الحكم على كتاباتك الأولى، قد يؤثر عليك ويصيبك بنوع من ضعف الثقة، أو اليأس من رحلة القلم فيما تكتب، لأن البدايات دومًا تكون غير ناضجة.

كثيرون ممن يريدون أن يكونوا شيئًا مهمًا في الحياة، يملكون الأدوات والمواهب التي تمكنهم وتؤهلهم لبلوغ هذا الشيء، لكنهم لا يستطيعون تحقيق أي خطوة فيه، أو الوصول إلى

غايتهم منه، لأنهم يستصعبون الخطوة الأولى، ولا يعرفون الطريق إلى البداية، ويتهيبون الدخول إلى عالمه، ويعجزون عن إدراك نقطة الانطلاق، فإذا بهذه الحيرة، تدفعهم إلى هَجرهِ والعزوف عنه جملة، وتحطيم أمانيهم وأحلامهم التي كانوا يتوقون إليها يومًا ما.! والحق أن هذا التهيب لا مبرر له، فهو وهم كبير، فما دمت تملك أدوات الشيء ومؤهلاته، فإنه لا ينقصك إلا أمر واحد يسير بسيط، ألا وهو البدء فيه، بأي شكل كانت هذه البداية، كبيرة أم صغيرة، تافهة أم فخمة، قوية أو ضعيفة، مرضية أم منفرة، ابدأ بأي شيء!

فالمهم أولًا أن تبدأ، ثم يأتي بعد ذلك التطوير والتحسين والتعديل والحذف والإضافة والتكميل والتهذيب، وكل الأدوات التي تبلغ بالعمل إلى درجة الكمال والتمام، وتؤهله لنهاية مُرضية وناجحة ومحمودة، فهل وعينا وعرفنا إذن كيف نلج إلى أحلامنا ونحقق مبتغانا ونصل إلى ما نتوق إليه؟! هل علمنا الآن كيف لو أننا شجعنا الكثيرين على البداية وعدم الخوف من أمل ضخم أو حلم بعيد المنال.؟!

إن أحدهم سألني يومًا وقال لي: أريد أن أكون كاتبًا، وفي ذهني وعقلي أشياء كثيرة وأفكار عديدة، ولكني لا أعرف كيف أكتب ومن أين أبدأ؟! فقلت له وبكل سهولة: ما عليك فقط إلا أن تبدأ! حتى ولو كانت البداية بشيء تراه تافهًا سخيفًا، ودون

المستوى الذي تنشده وتتمناه، فإنك مع هذه البداية بالتعديل و التحسين و المراجعة والإضافة و الحذف، ستصل إلى ما تريد من الرتبة و الدرجة التي كنت تصبو إليها وتنشدها، فكثير من إنجازات الحياة التي أقامها العباقرة و العظماء، ما كانت في بدايتها إلا أفكارًا أو بدايات متقزمة هزيلة، ثم أصبحت بالتحسين والتطوير والتعديل شيئًا ضخمًا مبهرًا يسر الناظرين، ولكن ما علينا فقط إلا أن ندرك أن السر في البدء، الذي يتهدم بعده كل عسير وصعب!

كثير من الكتب المهمة في حياتنا، ما كانت إلا مجرد خواطر ومحاضرات أو أفكار بسيطة ألقاها أصحابها على الجماهير من حولهم، أو المستمعين لهم من الطلاب والمريدين، ومع التفكير والتطوير والتحسين أصبحت كُتبًا مهمة محورية، قادت الجنس البشري كله على اختلاف بلدانه وألوانه، وأضافت للحياة منافع عظيمة.. وعلى هذا يكون الانطلاق ويكون المسير، فإذا عرفت موهبتك، وعلمت إمكاناتك، وأيقنت رغبتك، فلا تستصعب شيئًا في الحياة، ما عليك إلا أن تصبر وتؤمن وتستبشر وتوقن بالنجاح، وتثق في نفسك أنك يومًا ما ستكون كما تريد، فهذه هي القوة والوقود الذي يبلغك إلى غايتك.

يجب أن تكون في هذا شبيهًا بـأندريه أجاسي الذي فاز في بطولة (ويمبلدون) للتنس الأرضي عام ١٩٩٢م، و رسم

البداية في خياله، و انطلق منها ليصل إلى هدفه المنشود، وحينما جاءه الصحفيون يباركون له و يهنئونه بالفوز وهم يقولون: مبارك عليك هذا الإنجاز يا (أجاسي)! رد عليهم مستنكرًا: لم تكن هذه هي المرة الأولى التي أفوز فيها ببطولة (ويمبلدون)، فقد فزت بها آلاف المرات من قبل، فنظر الصحفيون إلى بعضهم متعجبين مستغربين من قوله، وقالوا: ولكننا لم نعرفك إلا هذا العام، ومن فوزك فقط في هذه البطولة! ولما أدرك حيرتهم قال لهم: نعم لقد فزت بها قبل ذلك، حينما كان عمري ١٠ سنوات، حيث كنت لا أنام ليلتي، إلا بعد أن أكون قد تخيلت فوزي هذا، وتخيلت نفسي وأنا أرفع هذه الكأس، لقد تخيلت فوزي وإنجازي وسعادتي آلاف المرات، لقد عرف (أجاسي) ما خفي على كثير من المتعثرين؛ عرف البداية التي جعلها النقطة والطريق الذي يصل منه إلى أمله، لقد كانت هذه البداية هي ذلك الخيال الي دفعه إلى التدريب والإعداد والتحسين والتطوير إلى أن أصبح بطل العالم!

هل تصدق أن (محمد التابعي) صاحب القلم الجبار، الذي أسقط حكومات، وعزل وزراء، وكان الكل يخشاه، ويعمل ألف حساب لمقالاته السياسية الجريئة الناقدة، لم يكن يحب السياسة، ولم يكن يفكر يومًا أن يكتب فيها، ولم يكن يستطيع أساسًا أن يكتب فيها؟!

إذن فما القصة وكيف كان هذا التحول من كاتب في الفن والتمثيل إلى أكبر وأعظم كاتب سياسي في مصر؟ يأتي ذلك حينما كان يعمل مع (روز اليوسف) في مجلتها الفنية والتي كانت تخسر باستمرار فنصحها أحدهم أن تكتب في السياسة حتى تنال رضى القراء ويقبلون على مجلتها وتحقق النجاح المرجو، ومن هنا كان لابد لهذا التحول، أن يتحول معه المحرر الأكبر في المجلة ورئيس تحريرها الأستاذ (محمد التابعي) من الفن إلى السياسة.

لكنه كان يثور لمجرد أن تطلب منه (روز) أو أي زميل هذا الطلب، وكانوا يستقبلون هذه الثورة بالابتسام حيث يتفهمون موقفه، و لكنهم لم ييأسوا و أعادوا عليه الطلب مرة أخرى، و شجعته (روز) و سهلت له الأمر بقولها: الفرق بين كتابة أخبار السياسة و أخبار الفن بسيط جدًا –هو فقط – بدلاً من الكتابة في (يوسف وهبي) تكتب عن (زيور باشا).

وهذه البساطة في الشرح كانت تثير أعصاب التابعي، لدرجة أنه في ليلة و النقاش حاد حول هذا الموضوع قال للجميع: «يا اخوانا أنا معرفش أكتب في السياسة ولا أقابل السياسيين» وأسند كتابة هذا الباب لبعض محرري البلاغ، و إزاء هذه المواقف المضطربة، بدأ (التابعي) يكتب في السياسة، و فتح بابًا جديدًا تحت عنوان (مسرح السياسة) وكان يعلق فيه على

الأخبار بأسلوبه المميز و شيئًا فشيئًا تطور الأمر، و ظهرت موهبته السياسية، ليصبح أكبر كاتب سياسي مؤثر يتطلع الجميع لرأيه ومقالاته.. فقط لأنه بدأ، فهل نبحث لنا عن بداية؟! أم أننا نُحب أن نظل في حيرة مؤرقة، واضطراب مظلم، نسوّف ونؤجل حتى يذهب حماسنا، وتنصرم عزائمنا، وتضيع مواهبنا وتتكسر أحلامنا ونخسر مستقبلنا!

رجاءًا ابدؤوا!

كثيرون كانوا يريدون أن يكتبوا، لكنهم لا يعرفون ما يكتبون، فكان جوابي لهم: اكتبوا أي شيء مما يرد إلى خواطركم، ويدور في وجدانكم، المهم أن تكتبوا، وتتحرك أقلامكم ليسيل مدادها.. فإن العقدة قائمة مستقرة، طالما ظل المداد واقفًا متصلبًا.!

وقود القلم

إن الأفكار هي الوقود الذي يمد الكتابة، وتحرك القلم ليكتب ويبدع ويصوغ وينشئ، وبدون هذه الأفكار، يظل القلم جامدًا عاجزًا عليلا لا يستطيع كتابة أي شيء.. ومن هنا كان لابد للكاتب الجيد، غذير الإنتاج، أن يكون غذير الأفكار أيضًا، وأن يعمل على توليد هذه الأفكار من منافذها المعروفة التي أولها القراءة.

فالقراءة هي الميدان الخصب، والنبع الثري، الذي يمد الكاتب بالأفكار والموضوعات التي يكتب فيها، ويشترط كذلك للحصول على هذه الأفكار من القراءة، أن يدرب الكاتب نفسه على تأمل ما يقرأ وتفكر معانيه.. وبدون هذا التأمل لا يحصل الكاتب شيء، ولا ينال الراغب في الكتابة ما يريد، فلا يعقل أن تتولد الأفكار من القراءة السريعة العابرة الجامحة، التي لا وقفة فيها ولا تأمل.!

يقول ستيفن كينج: «لو أردت أن تصبح كاتبًا، يجب أن تفعل شيئين عن الأخرين: إقرأ كثيرًا واكتب كثيرًا.. القراءة هي مركز الإبداع في حياة الكاتب.. أنت لا يمكنك أن تتمنى اجتياح أحد ما بقوة كتابتك إلا عندما تجتاحك أنت نفسك

أولاً.»

ويقول الأديب الكبير محمود تيمور: «إنه يقرأ المقالة أو القصة أو الخبر في إحدى المجلات، فتكون نتيجة ذلك أن يخرج بموضوع جديد لقصة جديدة.»

كما أن من أهم صفات الكتاب الناجحين، أنهم فوق سعة ثقافتهم ومعارفهم، تجدهم أذكياء نشيطون في استلهام الأفكار، من كل ما حولهم في الحياة، حتى أن أحدهم لو مشى في الشارع مجرد مرور عابر، لاستطاع أن يقتنص الأفكار ويستخرج كثيرًا من الموضوعات التي يتسلح بها قلمه ويكتب عنها، وتسوقه للإنتاج القيم الوفير.! وكذلك من قراءاته للجرائد، والنظر في أحوال الناس والمجتمع، كل هذه ميادين يستخرج منها الأفكار التي يكتب فيها، موضوعات ساخنة ومثيرة وناجحة وهادفة.. وكذا وصف الرافعي:

« لم يكن يمر به حادث يألم له، أو يقع له حظ يسر به، إلا كان له من هذا وذلك مادة للفكر والبيان، وكأنما كل ما في الحياة من مسرات وآلام مسخر لفنه؛ فهي للناس مسرات وآلام، وهي له أقدار مقدورة ليبدع بها ما يبدع، في تصوير الحياة على طبيعتها وفي شتى ألوانها، ليزيد بها في البيان العربي ثروة تبقي على العصور، وهو إخلاص للفن لم أعرفه في أحد غير الرافعي، ولَمَّا دعاه صاحب الرسالة للعمل معه، راح يلتمس

الموضوعات التي تصلح أن يكتب فيها للرسالة، فكان يضيق بذلك ويتحير، ثم لم يلبث أن تعودها، فكان يُرسل عينه وراء كل منظر، ويمد أذنه وراء كل حديث، ويرسل فكره وراء كل حادثة، ويلقي باله: إلى كل محاورة، ثم يختار موضوعه مما يرى ويسمع ويشاهد ويحس، ثم لا يهم أن يجمع له فكره، ويهيئ عناصره، إلا أن يجد له صدى في نفسه، وحديثا في فكره، وانفعالا في باطنه، وكثيرًا ما كان يعرض له أكثر من موضوع؛ وكثيرًا ما كان يتأبَّى عليه القول، فلا يجد موضوعه إلا في اللحظة الأخيرة، واللحظة الأخيرة عنده قبل موعد إرسال المقال بثلاثة أيام! وكان من خشية ذلك كان دائمًا في جيبه ورقات، يكتب في إحداها عنوان كل ما يخطر له من موضوعات الأدب ليعود إليها عند الحاجة، ويتخذ الورقات الباقية مذكرة يقيد فيها الخواطر التي تتفق له»

ثم انظر لهذا الكتاب الناصع الباهر (المساكين) الذي ألفه عام ١٩١٧م، والذي صور فيه لقطات من آلام الإنسان، لقد أوحى إليه بفكرته حينما ذهب لزيارة أصهاره في (منية جناح)، فلقي هناك رجلا اسمه (الشيخ علي) يعيش وحده، ليس له جيب يُمسك فيه درهما ولا جسد يمسك فيه ثوبًا ولا دارًا تؤويه، ولا حقلا يقتات منه، وحينما يجوع يهبط إلى أول دار يلقاها، فيتناول فيها ما يسد رمقه، ويدركه النوم فينام في الطريق، وهو

يتوسد ذراعه، يعيش بطبيعته فوق طموح الناس وآمال الحياة.

وهو نفس ما كان يفعله محمود تيمور حينما ألف قصته (عم متبولي) حيث استوحى موضوعها من مشهد لفت نظره أثناء جولاته في أحد الأحياء الشعبية لرجل يبيع اللب والفول السوداني.

كما كان أمير الشعراء (شوقي) يجتهد ويجول يمينا ويسارا وهو يبحث عن الأفكار، حيث وصف (أحمد عبد الوهاب) سكرتيره الخاص طريقة نظمه للشعر فقال: « لازمته يوما في ليلة في بوفيه دي لابرد على كوبري قصر النيل وكان ذلك قبل الحرب فشرع يعمل في قصيدة النيل التي مطلعها:

من أي عهد في القرى تتدفق وبأي كف في المدائن تغدق

وكان كل نصف ساعة يركب خيله ويسير في الجزيرة بضع دقائق، ثم يعود إلى المنضدة التي كان يجلس عليها فيكتب عشرة أبيات أو اثنى عشر بيتا، وهكذا انتهت القصيدة في ليلة، إلا بيتًا استعصى عليه ولم يتمكن منه إلا بعد يومين.»

يقول (نييل جايمان): : «تأتينا الأفكار من أحلام اليقظة، تأتينا الأفكار أثناء الشعور بالملل.. تأتينا الأفكار في كل الأوقات، الفرق الوحيد بين الكتاب والناس الأخرين، أننا نلاحظ عندما تأتينا تلك الأفكار.» كما نجد أن أغلب الأقلام السيالة ترجع

لأناس موسوعيين، لديهم ثقافات متنوعة وقراءات مختلفة واطلاع متسع بشتى العلوم واللغات والمجتمعات، كالأستاذ الفذ أنيس منصور، الذي أهلته ثقافته، أن يكتب أعمدة يومية مهمة وجذابة وتحمل مغذى مفيدًا؛ لأن الرجل يملك ثقافة كبيرة وينطق أكثر من لغة.!

ويحكي لنا (موسى صبري) عن أول لقاء له بالصحفي الكبير (مصطفى أمين) حين تخرج من موسى الحقوق وهو ابن (١٨) سنة، وكان القانون يمنع مزاولة مهنة المحاماة قبل سن (٢١) سنة، فأراد أن يعرض شكواه على الصحف، وذهب للقاء مصطفى أمين وعرض عليه قصته، ومصطفى يسمع في حماس ثم اقتاده إلى مكتبه، وأمسك بالقلم وكتب على فرخ ورق مسطر، يقول موسى: وكان يكتب بسرعة ملحوظة، لم يشطب معها حرفًا ولم يرفع القلم من السطر الأول حتى السطر الأخير، ثم قدم لي الورقة وقال اقرأ، قرأت سطوره وحاولت التركيز فلم أصدق نفسي، إن المقال كله عني وعن أن الدولة تعاقب النبوغ، وكتب أن نابليون كان يقود جيوش فرنسا وهو دون الحادية عشر، ولكننا نعاقب في مصر من يحصل على ليسانس الحقوق، ويتفوق في سن مبكرة، بدلا من أن نكافئه.. وطالب بتعديل قانون المحاماة، وسألي ما رأيك؟ فقلت: مقال عظيم لم أكن أتوقعه، ووعدني بنشره قريبًا ثم قلت له: أريد أن

أصارحك بشيء فقال: تكلم فقلت له: لقد قرأت في الصحف الوفدية أن محررًا اسمه محمد علي غريب، هو الذي يكتب لك مقالاتك وأنت فقط توقع، ولكن ما رأيته اليوم يؤكد لي كذب هذا الإفتراء، فأعجب بكلامي وضحك بصوت خشن.»

إن قلم (مصطفى أمين) لم يحتمل السكون والصمت حينما جاءته الفكرة، وإنما انطلق يسجل خواطره كالصاروخ، وصفها على الورق ودعمها بثقافته القوية، حينما ذكر أمر نابليون، وتحول الموضوع إلى مقال قوي هز به الحكومة ووزارة العدل.!

أما إذا كان الكاتب ضعيفًا في استحضار الأفكار، ولا يجد في خياله خصوبة تساعده وتمده بذلك، فعليه أن يبدأ في تدريب نفسه على الخيال والتفكر والتأمل، ويجلس بالساعات ليفكر في كل موضوع أو جملة من كل الجهات، حتى يحصل منها على ما يرضيه من أفكار تستحق الكتابة والتعبير عنها.. تمامًا مثل ملكة الحفظ لا تنمو إلا بالتدريب عليها وممارستها.

كما نجد أن اندماج الكاتب في الحياة وأحداثها الدائرة حوله، يجعله كثير الانتاج للعديد من الأفكار، لأن الحياة مليئة بالقصص والمواقف التي تمد العقل بوقود كثيف من الأفكار.. وهو ما وصف به الشيخ عبد العزيز البشري الذي «كان متصلا بالحياة المصرية اتصالا وثيقا، حيث عرف دقائقها في

أفراحها وأحزانها، وكان متصلا بالناس في مقاهيهم، أكثر مما كان عاكفا على القراءة والبحث، وكان يتصل بالزعماء والأوساط والأدباء، ويتصل بالصحف كما يتصل بالأحزاب، ويتصل بالهيئات الاجتماعية، وقد أمده هذا كله برصيد ضخم من الخبرة والفهم، كان له أثره في غزارة مادة أدبه»

كما على الكاتب أن يشارك في المنتديات الثقافية والمناقشات الفكرية المستمرة مع المثقفين، لأنها تُصقل العقل، وترشده لكثير من الوعي المطلوب، يقول الأستاذ أنور الجندي: « تمتد أبعاد الشخصية الإنسانية للكاتب في مجالات عديدة، وتتمثل هذه المصادر في أربعة مكونات أساسية:

١- القراءة

٢-الرحلة

٣- لقاء العظماء

٤- الندوات والمؤتمرات.»

ويعد الصحفيون من أكثر الناس أفكارًا أو حصولًا عليها، لأنهم مندمجون بحكم عملهم يوميًا في مشكلات الناس، ويستطيعون أن يستنبتوا كثيرًا من الأفكار التي تأتيهم دون بحث أو تعب، وكثير من الكتاب لا يجد عناءً في البحث

عن أفكارٍ، حينما يلجأ للصحف اليومية ويُطالعها ليجدها مليئة بأفكار كثيرة يتفاعل معها.. وكان أحد الأدباء الكبار، يُطالع الصحف والمجلات بشدة، لأنها تمده بكثير من المعاني والموضوعات، وبعض الكتاب كان يصنع القصص ويختلق الأحداث، فيحيك وهمًا أو مؤامرة أو مقلبًا ضد أصدقائه، أو أحدًا من معارفه، وينظر إلى ما تؤول إليه الأحداث، وتكون النهايات قصة يكتب عنها ويمتع قراءه.!

الكتاب الأذكياء هم من يلجؤون دومًا للشارع، ففيه حياة الناس ومشكلاتهم ومواقفهم وآمالهم الكبيرة، ومنه يستمدون ويستلهمون كثيرًا من الأحداث والمواقف، التي يكتبون عنها ويدونونها بمدادهم، سار أحد الأدباء يومًا في الشارع، بعد أن قضى سهرته مع أحد أصدقائه، وهمَّ راجعًا إلى بيته في منتصف الليل، وبينما هو في الطريق، وجد طفلا وطفلة من أطفال الشوارع، ينامان على باب بنك من البنوك، وقد توسدت الفتاة ذراعًا وألقت ذراعها الأخرى على أخيها، كان المشهد مؤثرًا أهاج مشاعر الأديب، فكان لابد أن يُعبر بقلمه عن هذا الأسى، فكتب مقالة يصف فيها هذا المشهد الإنساني ويُخلده بقلمه.

بعض الكتاب يلجأ إلى صحبة الأشخاص الذين يتمتعون بالثراء المجتمعي والخبرة الحياتية، وحفظ الأمثال الدنيوية

والدروس والروايات والأحاديث التي تعج بها حياة البشر، وهذه النوعية من الأصدقاء الرواة يألفهم الكتاب، ويشكلون لهم مادة خصبة للأفكار والغرائب والحكايات والأمثال التي تدعم أقلامهم بالجديد والمثير.

والكاتب المحظوظ حقًا، من يمن عليه القدر بصحبة إنسان من هؤلاء، ملئ بالخبرات ذاخر بالدروس والروايات، ومكتظ بالعبر والشواهد والأمثال، حيث يُعد للكاتب كنزًا من الكنوز الثمينة، التي لا يجب التفريط فيها أبدا؟ وأنا عن نفسي رزقني الله بصحبة واحد من هؤلاء، ألجأ إليه دومًا كلما أعيتني الحيل والسُبل في استجلاب أفكار وأطروحات أكتب عنها.

وللتدريب على هذه الاستمرارية، يلجأ الكاتب للكتابة في كل ما يطرأ على تفكيره، حتى لو اضطر أن يكتب مذكراته أو يومياته، وعن تعاملاته مع الناس، وأكثر الصحفيين يترقون في مناصبهم، حتى يصل لصاحب عمود يومي أو مقال أسبوعي، وهنا يواجه مشكلة حقيقية، لو كان ضعيف الثقافة، ضئيل التفكير.

والتفاهة الكتابية مشكلة كبيرة تقابل بعض الكتاب، وتواجهه في حياته المهنية، خاصة حينما يكبر وينمو ويرتقي ويكون صاحب عمود في صحيفة يومية، حيث يجد هناك من يلزمه أن يكتب يوميًا ويملأ هذا العمود بكلام يُقرأ ويُفيد ويثري..

وهنا لا يستطيع هذا الصحفي أن ينجوا من هذه المأزق، إلا بثقافته الواسعة، وعلمه المتسع وخبراته الحياتية المتعددة، أما إذا افتقر لهذه الأشياء، فإن قلمه سيتحول ليكتب في الأمور التافهة، ليُغطي ما لديه من عجز، ويوفي ذلك العمود الذي يلح عليه بطعام من الكلمات يأكله كل يوم.. ويكتب كاتبنا، ويدور قلمه متسولا هنا وهناك، ولا يجني هذا المرار إلى القراء الذين يشاهدون قلمًا يتيه كل يوم في تفاهة وفلس وجدب وفقر ونضوب.!

بعض الكتاب الكبار الذين يتمتعون بثقافة واسعة، وقراءة غزيرة وخبرات حياتية جيدة، إذا لم يتنبهوا لأنفسهم، فإنهم يقعون في هذا الشرك، ويقدمون سطور التفاهة التي تضر بسمعتهم، وتجعل القارئ يتعجب منهم هذا الحال الذي لم يألفه عنهم والمنحدر السحيق الذي صاروا إليه.

ما معنى أن نجد صحفياً كبيرًا، يكتب عن تسريحة مذيعة معينة في التلفزيون وأنها لا تعجبه؟! وما معنى أن يكتب صحفي كبير مرموق عن لحية لاعب الكرة محمد صلاح، وأنه غير معجب بتسريحة شعره؟! ووجهة نظري أن كاتب العمود اليومي، يُعرض نفسه لعمل شاق وضخم جبار، فهو تمامًا يشعر بمن يُلاحقه ويرصده ويهدده، ويذهب عنه الأمان والشعور بالقرار.. فرق كبير بين أن تكتب بما يمليه عليك

وحيك وإلهامك، وبين أن يطلب منك أو يفرض عليك أن تكتب.

ودعك من هذه الصحيفة وذاك الكاتب، فالمُفزِع في الأمر، أن تجد لهذه التفاهة سوقًا ورواجًا، وأن تجد هناك قارئًا يستعذبها وتروق له، ويمجد صاحبها ويفخم من كتاباته.. هنا فقط تكون الحيرة وتكون الطامة.

كما أعجب كل العجب من روائع الأفكار، وبدائع الخواطر، التي أحاول استدعاءها في فكري فلا أجد لها أثرًا أو حضورًا، ثم لا ألبث أن أهيء فراشي، وأمدد جسدي، واستسلم لنوم عميق، حتى تهب على الخواطر والأفكار في هجوم مباغت، لا أملك حياله إلا أن أفزع منتفضًا حتى أسجلها في أوراقي قبل أن تضيع مني وترحل عن ذاكرتي، وكثيرًا ما انصرفت عنها غير عابئ بها، فأطلقت العنان للنوم، ومنيت نفسي قائلاً لها: غدًا أسجل خواطرك وإبداعك، فلما أقبل الصبح لم أجد شيئًا، ولا أذكر شيئاً.. وأحاول عصر عقلي والبحث في ذاكرتي، ولكن بلا فائدة، فقد ذهب كل شيء أدراج الرياح، أو طاف عليها طائف النسيان وهم نائمون.

ولكي أتغلب على المشكلة، ولكي لا يهرب مني صيد الخاطر، وضعت تحت وسادتي ورقة وقلمًا وقلت لعقلي: فليأت منك ما يأتي من الخواطر، فأنا مستعد لها وقلمي قناصها، ولن

أتكاسل عنها، وتذكرت في هذه اللحظة، ما يبعث في نفسي الهمة من أفعال السلف الصالحين، فقد كان الإمام البخاري رحمه الله ينام، ثم تأتيه الفكرة والخاطرة، فيقوم ويوقد السراج ويدونها، ثم يطفئ السراج وينام، فتأتيه فكرة أخرى، فيقوم ويوقد السراج ويدون الفكرة، ويطفئ السراج ثم ينام، وقيل: إنه كرر هذا الأمر في بعض الليالي عشرين مرة.!

والحق يقال، فرغم سعادتي بهذه الخواطر، إلا أنها عديمة الذوق لا تراعي تعب الإنسان أو حاجته للراحة، فتداهمنا رغما عنا، حسب ما تريد ووقتما تريد، بغير دعوة منا أو رغبة، ولعل النوم أمره يسيرًا، وبإمكانك أن تستأنفه مرة أخرى، ولكن هناك أوقاتا عجيبة محرجة تهوها هذه الخواطر، وتحب أن تأتينا فيها، وإذا كنت أستطيع التصرف أثناء النوم، فكيف أتصرف وأنا في الحمام؟ كما لا يعقل أن أضع في الحمام ورقة وقلمًا، فليس هذا المقام مقام الأوراق والأقلام.. إنها تُصر أن يتحول بيت الراحة إلى بيت القلق والإزعاج، فلا أراني إلا وقد انصرفت عما أريد صرفه، لأسجل هذا الطيف المُلِح، قبل أن يرحل عن عقلي وبلا رجعة.

ورغم هذا الإزعاج، إلا أنني أعد هذه الأطياف فتح عقلي، وهدية من الله، ورزقًا ساقه إلي، ولعلي أكون فرحًا بها أشد من فرحي بمنحة وظيفية، أو مكافأة مالية، فإن لها لذة لا

تعدلها لذة، فعليها أن تأتي في أي وقت، وأي لحظة، وفي أي مكان، فلن تجد مني إلا الترحيب والاستعداد الكامل لتلقيها، وتسجيلها في قراطيسي، ولا أخفيكم فلكل قاعدة لها شواذها، فعلى قدر ترحيبي بها واستعدادي لاستقبالها مهما كانت الظروف، فإن هناك وقتا يتبدل فيه حالي، وتتغير تجاهها مشاعري واستعدادي، فمهما كانت هذه الخواطر جميلة فذة عبقرية.. ومهما كانت حلا لعقدة أرقتني، أو مسألة حار فيها عقلي، فهذا الشغف بمجيئها وهذا الفزع لاستقبالها.. يتبدل ليصير نفورًا منها، وضيقًا بها، وهروبًا من إلحاحها.! لأنها ساعتها لا تسمى خواطر وإنما تسمى وساوس تريد صرفي عن خشوعي لربي وحرماني من ثواب عبادته.. نعم إنها الصلاة، مرتع الخواطر، وأكثر الأوقات التي تطوف فيها وتحلق بسماء العقل والوجدان.. ولا أعرف هل تحالفت مع الشيطان حتى تفسد علي عبادتي ونُسكي؟ أم الشيطان يعرف ما يغيب عني فيقدمه إلي هدية في صلاتي؟!

وكان الأديب محمود تيمور في رحلاته خارج مصر، كلما جاءته خاطره سارع بتسجيلها في مذكراته، حتى أن زوجته كانت تجذبه من يده وتقول له: لقد جئنا للترويح عن النفس لا لكتابة المذكرات!

وكان الإمام ابن الجوزي رحمه الله ممن يسارع لتسجيل الخواطر

التي تأتيه قبل أن تضيع منه، لأنه لو أهملها وسوف في صياغتها لتاهت وما اهتدى إليها أبدا، وهكذا الفكر يمنحك عطيته وهديته، فإذا تباطأت في قبولها واقتناصها، حرمك منها، وضن بها عليك مرة ثانية، فحينما نقرأ كتاب صيد الخاطر للإمام ابن الجوزي نجده كتب في مقدمة كتابه ما يلي: «لما كانت الخواطر تجول في تصفح أشياء تعرض لها ثم تعرض عنها فتذهب كان من أولى الأمور حفظ ما يخطر لكيلا ينسى.. وقد قال عليه الصلاة والسلام: قيدوا العلم بالكتابة.

وكم قد خطر لي شيء فأتشاغل عن إثباته فيذهب فأتأسف عليه.

ورأيت من نفسي، أنني كلما فتحت بصر التفكر سنح له من عجائب الغيب، ما لم يكن في حساب، فأنثال عليه من كثيب التفهيم، ما لا يجوز التفريط فيه، فجعلت هذا الكتاب قيدا - لصيد الخاطر»

نضوب القلم

يقول الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله: «إن يومًا يمر علي لا أكتب فيه شيئًا، أو أعد في نفسي شيئًا لأكتبه، لهو يوم بؤس علي لا يوم نعيم.»

وقال أحدهم في وصف القلم: «هو أداةٌ للكِتابة، بها يَكتبُ الإنسانُ مُختلف العلوم، وما تجودُ به قريحتُه مِن خواطرَ وأفكار، وفوائدَ وأشعار، مُلازِمٌ لأكثر الناس، لا يُفارقهم بليلٍ أو نهار، صديقُ مَن لا صديقَ له، أداةُ التعبير، ووسيلةُ التغيير، وسيلةٌ لشحذ الهِمَم، وطريقٌ يصلُ بصاحبِهِ لأعلى القِمَم، قد يُغني عن كثير الكلم، ويصلُ صوتُه لأكبر عددٍ مِن الأنام، وسيلةٌ للدعـوةِ إلى الله تعالى، بوَّابةُ الدخول إلى القلوب، ووسيلةُ الكشف عن العيَوب، وسيلةٌ لإرشاد التائهين، وسببُ عودةٍ للحائرين، يأخذُ بيدِ مَن تخبَّط في الدروب، ويُعينه على التخلُّص مِن الذنوب، طريقٌ مَن سلكه تعلَّم، ومَن أمسك به لم يندم، ومَن أحسن استخدامه عاد عليه بالنفع والأجر، استخدامُه ليس بالصعب، وامتلاكُه سهلٌ يسير، لكنَّه يحتاجُ إلى بعض التدريب، كي يستخدمه صاحبُه أحسن استخدام، فلا يَضِلُّ به أو يُضَلُ»

ومن ثم.. وبعدما تجلت لنا قيمة القلم في حياتنا، ندرك أن توقفه ونضوبه شيء مؤرق، لمن صاحبوه وعشقوه من المفكرين والكاتبين والعلماء والأدباء والشعراء.!

إن التوقف عن الكتابة، حالة تعتري كثير من الكتاب والمؤلفين، يشعر المرء فيها أنه أصبح خاويًا تمامًا، ولا يجد ما يكتبه أو يقوله، وهي حالة تُصيب الروائيين والقصاصين، أكثر مما تصيب المفكرين والفلاسفة، لأن الأوائل يرتبط إنتاجهم بالإبداع والخيال، الذي هو عرضة مؤهلة للإصابة بنوبات النضوب، أما الفكر فهو مرتبط بحياة الناس وأحداث الإنسان التي لا تنتهي، وتعمل على تجديد أفكاره وإثارة انتباهه باستمرار وتواصل، وترتبط بالثقافة الواسعة التي تتمدد مع الوقت بكثرة القراءة، وما تستجمعه الذاكرة.

ولعل التوقف عن الكتابة يكون لدى كثير من أصحاب الأقلام، يعنى التوقف عن السعادة، والتوقف عن الحياة ذاتها، كما أشرنا في قول الشيخ الطنطاوي، لأن الكتابة بالنسبة لهم هي الحياة والعشق والشعور الفعلي بالسعادة.

إن أحدهم إذا توقف عن إمساك القلم، تَسّوَدُ الدنيا في وجهه، ويشعر باليأس، ويرى العالم حوله في بؤس قاتم، وتكون بداخله أحاسيس من الألم لا يدري عنها، ولا يشعر بها أحد ممن حوله.

وفي الأدب العالمي كان هناك نماذج كثيرة، وأسماء لامعة، أصيبت بعملية الفتور الكتابي، والتوقف الإبداعي، حيث توقف الشاعر الفرنسي (رامبو) عن الشعر نهائيًا بعد كتابه الثاني، وهو في (١٩) من عمره ولم يعد إلى الكتابة، وهو ما فعله (جيرمي سالنجر) الذي ترك أربعة كتب مهمة، ثم لزم الصمت لأكثر من (٣٠) عامًا، مثله مثل الكاتب الأرجنتيني (أنريكه بانش) الذي نشر عملاً رائعًا هو (صندوق الاقتراع) ثم أحاط نفسه بالصمت والغموض لخمسة وثلاثين عامًا.

كذلك (شكسبير) الرجل الذي قلب تاريخ الأدب العالمي، حيث اكتفى في أواخر أيامه، بأن يعمل مرابيًا، واشترى راحته البدنية والذهنية بإبداعه.. وهناك رواية لستيفن كينج تتحدث عن هذه العلة، وتحكي عن كاتب يُصاب بهذه السدة الكتابية أو الشلل القلمي، والصمت الرهيب، ويحاول استدعاء إبداعه وخياله، ولكن لا استجابة على الإطلاق، حيث كل شيء معطل، وتنتهي القصة بانتحاره.! ونجيب محفوظ توقف سنينًا طويلة حتى كتب أولاد حارتنا عام ١٦٩١م .. وامتنع شوبنهاور عن الكتابة لمدة سبعة عشر عامًا متصلة حينما انتقل إلى مدينة فرانكفورت وعاش هناك وحيدًا.

ويُرجع الكثيرون هذه الحالة من الفتور والصمت الكتابي، إلى الشعور بالملل أو الإرهاق أو الخوف، أو الإحساس بالحيرة،

وعدم الثقة بالنفس، والشعور بأن ما يُقدمه المُبدع ويكتبه، ليس جديرًا ولا يُعجب القراء، أي أنها ترجعُ للحالة المزاجية التي يعيشها الكاتب ويحياها.

وقد يكون داء الصمت الكتابي، ناتجًا عن كسل وترهل فكري، ومن ثم لابد من الجهد والحماس في محاربته، والتصدي له عبر طرق مجربة، لَفتَ إليها كثير من الكتاب، فعلى سبيل المثال يقول (نجيب محفوظ) في إحدى حواراته: إنه كان أحيانًا يجلس إلى المكتب، وليس في رأسه فكرة واحدة، ويكتب من وحي القلم، أي أنه كان يتغلب على السكتة الإبداعية المؤقتة بالكتابة، بكلمات حتى لو بدأت من فراغ، فإنها تقود إلى كلمات وإلى كتابة.

أما (إيزابيل الليندي) فإنها تتغلب على ذلك التوقف المؤقت حسب قولها، بكتابة شيء آخر، مثل مذكرات يومية، ولهذا السبب كتبت كتابها (أفروديت)، بعيدًا عن عالم الرواية والأدب، كما أنها تقترح في حال التوقف، أن يكتب الكاتب في أي موضوع؛ عليه أن يكتب بحثًا، أو مذكرات، أو مقالاً، المهم ألا يتوقف عن الكتابة.

وبعض الذين ناقشوا هذه القضية، رأوا حلولا يمكن أن تُرضي الكتاب الذين يصابون بدائها، حيث تعتمد في المقام الأول على تغيير الروتين الذي يعيشه الكاتب وتغيير نمطه الحياتي،

كالخروج للمشي والتنزه، وممارسة الرياضة، وتغيير المحيط الذي يحيا فيه، أو القراءة في لون جديد من ألوان الثقافة، أو خدمة البيت وتنظيفه، وإعداد الطعام في المطبخ، والتعرف على أصدقاء جدد، وكلها تصرفات تُساعد على تجديد شخصية الإنسان الكاتب، وإيجاد الجديد في حياته، حتى تُخرج حسه وشعوره من إطار التبلد الذي يحيا فيه.

يقول الأستاذ الطنطاوي: « هكذا نفس الأديب يا سادة، تفتح الينبوع الدفاق، ثم تشح شح الصخرة الصماء، ما تبض بقطرة ماء، ولكن الناس لا يصدقون ذلك! إنهم يحسبون الكاتب يخرج المقال من نفسه، كما يخرج التاجر البضاعة من دكانه، ولا يدرون أن هذا الكلام يجئ أحيانا حتى لا يقدر الأديب على رده، ويعزب حينا حتى لا يلقاه، وأنه يعلو ويصفو وينزل ويتعكر» .. وبعضهم يرى أن الهم والحزن والشعور بالظلم والقهر إن وجد، فإنه يكون من الأسباب التي تقضي على فتور الكتابة، لأنها تصهر الوجدان، وتحرك الشعور، وتلهب العاطفة، التي تستدعي القلم، ليصور ما بداخلها من صواعق الإبداع.

سئل مصطفى أمين: متى تعتزل الكتابة؟ فقال: إنني أريد أن أموت والقلم في يدي! فأنا أكتب كما أتنفس، إنني أتوقف عن الكتابة عندما أتوقف عن التنفس!

وسألته مرة إحدى الشابات: وهل معنى ذلك أنك ستكتب دائمًا؟

فقال: سأستمر أكتب إلى أن يقصف قلمي! وعندما لا تجدين مقالي، فاعلمي أني إما مت.. أو ماتت الحرية في بلادي!

وفي يوم من الأيام أمسك العقاد بقلمه وهم أن يكتب، فوجد يده ترتعش ولم يستطع أن يكمل الكتابة، وهنا حزن كثيرًا لأن ذلك اليوم هو اليوم الذي كان يخشاه، لأن معنى أن يقف قلمه، أنه يموت، ولم يلبث الحزن أن عصف بقلبه فرحل بعدها بأيام.. مات بعد أن توقف قلمه، ولم يعد يقوى على حمله.

والكاتب الذي يمتلئ عقله بالفكر، يتعرض قلمه دومًا لنضوب وتوقف في الطرح، حينما ينشغل بمشكلات الحياة ومتطلبات الأسرة والبيت والأبناء.

والأمة التي تُعنى بأدبائها ومفكريها، وترعاهم وتنفق عليهم، تقدم خدمة جليلة للإنسانية والابداع والفكر والأدب.. تمامًا كما كان يحدث في الأزهر قديمًا، حيث كانت الأروقة تتنفق على الطلاب والعلماء، حتى تخلوا عقولهم من هموم المعيشة فيتفرغون للإبداع والتصنيف والبحث والتلقي وإفادة الأمة بعبقرياتهم التي تتولد.

وأكثر الكتاب، لا تنفعل أقلامهم إلا بالغوص في حياة الناس

وقضايا المجتمع، فإذا انعزل عنهم واعتكف في بيته أصيب بهذا الفتور وانعدام الإبداع، لأنه لم يزوده بالوقود اللازم الذي يُحركه ويُخرجه ويُوَّلد فيه مفرداته اللائقة والمعبرة.. وبعضهم يحاول أن يجد علاجًا لهذه العلة فيقول:

«يمكن أن نواجه هذه الحالة بكتب الشعر، الروايات، الأفلام، وأصناف جديدة من الطعام، السفر، العلاقات، الفنون، الاعتناء بالحديقة، المدرسة، الموسيقى. في هذه الأثناء استرخِ واكتب بقدر ما تستطيع، حتى لو كان ما تكتبه خاليًا من الأحاسيس، انتظر بعدها حتى يصفو ذهنك، وتصل إلى حالة الثراء الفكري وعندما يتحقق ذلك سيعود الشغف»

كما أن شعور الكاتب بالظلم والقهر والكبت وضياع الحرية، يقهر قلمه، ويسد نفسه وشهيته للكتابة، لقد كان إحسان عبد القدوس من ألمع الكتاب السياسيين في مصر، ولما تعرض للسجن والقهر في عهد ناصر، ترك السياسة كلية، ولم يستطع بعدها أن يتكلم في هذا الميدان، لأنها تذكره بالألم الذي وجده في السجن، واستطاع القهر أن يحرم مصر من أشجع الكتاب السياسيين، والذي كان له الفضل الأكبر في قضية الأسلحة الفاسدة.

ولعل الكاتب الواعي هو الذي يُعدد ميادين ومجالات قراءاته، ولا يتخصص في مجال واحد، حتى إذا افتقر مداده في جانب

ونضب فيه قلمه، أتته الميادين الأخرى لتسعف قلمه بأفكار وأطروحات جديدة، وهو الحال الذي كان عليه إحسان فحينما توقف في السياسة، لجأ إلى الأدب إذ كانت لديه ملكة الخيال والأدب واللغة، فكتب العديد من الروايات والقصص التي أقبلت عليها جماهير القراء وأخرجت للسينما، وكان كذلك بارعًا في كتابة السيناريو للأفلام السينمائية.. ومن هنا استمر قلم إحسان، ولم يتوقف عن الحياة، حينما توقف عن السياسة.. وهو نفس ما كان وحدث للأستاذ العقاد حينما أعيته السياسة، وعزم على هجرها، فإنه لم يمت ولم ينتهي قلمه، وإنما انتقل بقوة إلى عالم الفكر والأدب، والبعض الآخر.. يظل يكتب ويكتب، وحينما ينظر في النهاية، يجد أن أحدًا لم يقرأ له، ويعرض الناس عن تذوق ما يُسطر.. فيصاب بخيبة أمل، تسوقه للعزوف كلية عن هذا الميدان! ومن هنا ظهرت الدعوة لدى الكثيرين، للتعامل مع الكتابة على أنها هواية ومتعة، يستلذ صاحبها في ممارستها، وعلى الكتاب ابتداء أن يكتبوا لأنفسهم، لأن الناس قد تغيب عن أعينهم وأذواقهم إدراك مواهبهم الحقيقية، ولعلها دعوة تنقذ أصحابها من صدمة تولد فقرًا أو فتورا أو نضوبًا في القلم.. كثيرون جدًا كتبوا لأنفسهم في مطالع حياتهم ومقتبل عناقهم للقلم ومنهم نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم.! ولم يكونوا يومها في حاجة لمن يؤكد لهم جمال ما يكتبون وروعة ما يسطرون لأن هوايتهم أن يكتبوا.

طور أسلوبك

لعل من أبرز الخطوات التي تطور أسلوب الكاتب وتحسن من مفرداته وتجمل ألفاظه وسرده تلك الطريقة المجربة والمتبعة في عالم الكتاب وعشاق القلم من المبدعين والمفكرين، والتي قمت شخصيًا باتباعها والعمل بها، وكان لها أكبر الأثر وأبلغه في تطير أسلوبي وطريقة صياغتي ورشاقة قلمي الممزج بروج أدبية جيدة.

- لقد أشرنا فيما سبق أن القراءة ضرورة للكاتب، وأنها الزاد القوي الذي يستمد منه مادة كتابته وأفكاره التي يبني عليها، ولكن لابد أن يُصاحب هذه القراءة عملية يرصد فيها ويتأمل ويدرس ما يقرأه ، ولابد من إحضار أوراق بيضاء أو دفتر فارغ أو كراسة صغيرة، ليسجل فيها الكاتب كل ما يقرأه من ألفاظ بلاغية ومفردات جديدة وجمل بيانة وأبيات شعرية، وكل ما يستهويه ويأسر إعجابه ويبهر ذوقه من الكلام المقروء، وبعد هذا التسجيل لهذه النوادر البيانية، يقبل الكاتب على حفظ ما سجل من هذه العبارات والمفردات، ويرددها كلما غدى أو راح، في ذهابه وإيابه، في حله وترحاله، وبعد حفظ كثير من هذه النوادر، يهم الكاتب بعد فترة زمنية ليكتب بقلمه، فإذا

به يجد أن هذه الجمل والعبارات والمفردات مما يستخدمه في تعبيره، وتأتي سن قلمه، وتعترض مسيرة مداده!

وقد كنت في صغري أحفظ كثيرًا من الجمل الأدبية والمفردات اللغوية والأشعار والحكم، وكنت متعلقًا أشد التعلق بعبارات الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى في كتبه ومؤلفاته ومقالاته، التي كانت تنشر في صحيفة الشعب وبعض المجلات، ولما كبرت ورحت أكتب باستمرار، لاحظت أن كل ما حفظته من عبارات ومفردات وجدتها في كتب الشيخ، تخرج من قلمي ويطبعها بالمداد على الورق، حتى أن كثيرًا ممن كانوا يقرؤون لي يقولون: إن أسلوبك متشبع بعبادات الشيخ الغزالي، وأن روحه بارزة في كتاباتي!

كذلك القِدامى من الكتاب والمؤلفين، ما كانت تقوى مواهبهم اللغوية، إلا بما كانوا يحفظونه من الأشعار والمنظومات والأحاديث والمتون، وكذلك كانوا ينصحون المبتدئين في نظم الشعر، بحفظ الكثير من الشعر القديم والحديث، لأن الحفظ يثري اللغة والمفردات.

وكان موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام جمال الدين الأفغاني، قد شعر حينما جاء إلى مصر بضعف النهضة الأدبية، فدفعه ذلك إلى تشجيع تلاميذه على القراءة في كتب الأدب ليستقيم أسلوبهم، وتقرب عباراتهم إلى الفصاحة والبيان، ليستطيعوا

بعد ذلك أن يكتبوا في الصحف، ما يعن لهم من الأغراض، لصالح الأمة وخير الوطن، واستطاع أن ينال بعد هذا التشجيع، ما يرجوه من وجود كتاب لا يشق لهم غبار، وأصحاب أقلام يشار إليهم بالبنان.

وكان الشيخ عبد العزيز البشري مدمنا لقراءة كتاب الأغاني، ومولعا بالاطلاع الدائم على صفحاته، حتى قال عنه الدكتور طه حسين: «ففصح لسانه إلى أبعد غاية من غايات الفصاحة»

- كما نجد صورة أخرى من صور الإجادة في التعبير وتطوير الأسلوب، وهي أن ينظر الكاتب الذي يبدأ أولى خطواته في عالم الكتابة، إلى الكاتب الذي يحبه، فيقتني كتبه ويتابع مقالاته وأفكاره، وهذا القبول الذي يجده المبتدئ تجاه هذا الكاتب، تجعله يقبل على كل ما يكتبه ويدقق في ألفاظه وعباراته وأسلوب عرضه وطريقته، بل يجد نفسه من كثرة متابعته له، أنه صار يقلده ويحاكيه لأنه أدمن المتابعة له، وصار بينهما ما يشبه عملية ارتباط روحي، تسوق المُعجب إلى تقديم أسلوب يشبه أسلوب من يعجب به، ولا تقف هذه المحاكاة عند الأسلوب والعبارة والبيان فقط، وإنما يجد نفسه يميل إلى ما يميل إليه من نوعية الكتابات التي يكتب فيها، فلسفية أو أدبية أو اجتماعية أو أدبية أو دينية، وليس معنى هذا أنه سيكون تكرارًا لهذا الكاتب أو نسخة كربونية مما يكتب وإنما يكون متأثرًا به، لكنه

في نفس الوقت له شخصيته المستقلة وكيانه المتفرد وأسلوبه الخاص.

- من المهم جدًا أن يجد الكاتب من يقرأ له، حتى يرشده لنقاط الضعف والخلل في أسلوبه وطريقته التي يكتب بها، وتناوله للموضوع الذي يكتب فيه، فيعدل له ألفاظه وجمله التي لا يراها مناسبة، وهو يُعد بمثابة تدريب للكاتبة على الذوق السليم الذي يرشده إليه القراء ، وهذا الأمر يتاح اليوم إلى حد كبير بالنسبة لكثير من المبتدئين، عن طرق صفحاتهم في مواقع التواصل الاجتماعي، حيث صار كل إنسان بإمكانه الكتابة والتعبير عن رأيه، وبإمكانه أن يكون الجمهور الذي يقرأ له ويتابعه ويناقشه ويحكم عليه، هناك على الصفحة أصدقاء يقرؤون ويرى كل منهم رأيه الخاص به، ومن زاوية مختلفة من النقد والتعديل والطرح والتصحيح، سواء في الأسلوب أو القواعد النحوية أو المادة، المهم أن الكاتب يستفيد في النهاية إفادة عظيمة جدًا، وبدرجة عالية من آراء القراء، مما يُعد تطويرًا سريعًا للكاتب.

- من المهم والمحتم ومما يحرص عليه الكاتب ويتعلمه ويداوم على التمرس فيه، هو تعلم الاختصار والايجاز، فهو أبرز ما يُهتَم به في تطوير الأسلوب، وكلما كان الكاتب موجزًا مجيدًا في الاختصار، كلما كان كاتبًا حاذقًا بارعًا متميزًا، فتعلم التلخيص

والاختصار وإبداء الإفادة المباشرة من القلم، أمر يستلطفه القراء الذين يملون من الحشو الزائد، والكلام الكثير، وكثيرًا من الكتاب يجدون في أنفسهم شهوة للعرض والكتابة الكثيرة والشرح الطويل، وإذا كانوا يتوقون إلى ذلك، ويجدون في أنفسهم رغبة عارمة إلى هذا، فعليهم أن يعدلوا رغباتهم، ليكون الإلحاح الأول في نفوسهم هو الرغبة في الاختصار، والشهوة في الإيجاز، لأنه الطريق إلى نجاح المكتوب.!

ويُعد الاختصار فنًا واحترافًا، لا يناله الكاتب إلا بالتمرن عليه والتدريب المستمر لامتلاك ناصيته، وكلما تقدم فيه الكاتب ونفذه، كلما كان ذلك دليلا على حذقه وتميزه، ومن فوائد الإيجاز أنه يساعد على التركيز والقدرة على التأثير في القراء، وكما قيل: (كلما أوجزت كلما أبدعت)، ومما وصف به نبينا نفسه صلى الله عليه وسلم قوله: (أوتيت جوامع الكلم) فخير الكلام ما قل ودل.. لأن الناس في زماننا صاروا لا يقرؤون كثيرًا، فلنيسر عليهم نحن سبيلهم إلى القراءة، ولا نرمي بهم إلى ما ينفرهم منها.

يقول أحد الكتاب: (إن سر الكتابة الجيدة، هو أن نجرد كل جملة حتى نصل إلى أنظف أجزائها)

- أهمية التدريب المستمر على الصياغة الجيدة، فيعيد الكاتب نظره فيما يكتب، ويستبدل الألفاظ والمفردات بغيرها، أكثر

جاذبية وبلاغة وحسًا ويحذر الكاتب من تكرار المفردات المتشابهة، فذلك خلل كبير في الصياغة، وتشويه ملحوظ للأسلوب، سواء تكرارها بكثرة في الموضوع الواحد، أو تكرارها بقلة في السطور المتقاربة، فإنها تفسد موسيقية الأذن.

- وتأتي اللغة العربية، والاهتمام يتحسين قواعدها من النحو والاعراب ضرورة هامة، وهي مما يقّوم الأسلوب ويُظهره سليمًا عفيا جيدًا، خاليًا من الضعف والركاكة، والذين يؤخرون الاهتمام باللغة وقواعدها، يكتبون نصوصًا ضعيفة، فدراستها مما يحبب اللغة في النفس، ويزيد من الاهتمام بالكتابة والقراءة بلغة سليمة واضحة، وهناك قراء لا يقيَّمون الكاتب إلا باللغة، وليس الأسلوب، فإذا وجدوه يخطئ في اللغة، أعرضوا كلية عما كتب..

ومن المحزن أن كثيرًا ممن يبدؤون طريقهم في الكتابة، تسول لهم أنفسهم أن يكتبوا بالعامية، وعليهم من البداية أن يختاروا طريقهم، لأن الانصهار في عالم العربية يدرب القلم عليها، والذين يدعون ويكتبون بالعامية لا أتخيلهم كتابًا حاذقين مؤثرين، لأنهم يفتقدون اللغة التي تولد عناصر الابداع والتشويق، والحس والجمال، والتأثير المطلوب الوصول إليه في جماهير القراء.

- كذلك لا يقتصر الأمر في تطوير الأسلوب على اللغة فقط،

فإن القراءة المستمرة، تُكسب صاحبها وتهبه كثيرًا من الأفكار، التي يجب أن يدونها، حتى لا تضيع من خياله وعقله، وتكون أفكارًا لمقالات جديدة، أو تضاف لمؤلف يشرع فيه، أو فكرة تنضم لمحاضرة يُعدها أو خطبة يلقيها.

- والكتابة المتواصلة من أبرز وأهم العوامل التي تُقوي الأسلوب لدى الكاتب، فليكتب صباحًا ومساء، نهارًا وليلاً، وليضع في ذهنه أنه يعمل على مشروع كبير وعظيم، يُرجى منه تخريج كاتب جيد، فليكتب في يومه ما شاء أن يكتب، ومن المهم أن لا يمر يومه دون كتابة وتفكير وإعمال للقلم، وإن أعجزه الفكر، فليكتب أي شيء، حتى ولو كان شيئًا عاديًا، كأن يصف طعامه وبيته ومكتبته وما حوله.

- احرص دومًا أن تكون قوة العبارات في كامل مقالك وكتابتك، فالبعض يبدأ كتابته لموضوع معين بعبارات قوية شديدة مؤثرة، ثم بعد ذلك وكلما أوغل من موضوعه، يضف في تعبيراته وجمله ومفرداته، ومن ثم لابد أن يُعيد تجبير أو تحسين ما كتب، لو وجد ضعفًا أصاب منطقة مما كتب، فالكتابة القوية في كل مقاطعك تزيد من المتابعة لك، والاهتمام المتواصل من القارئ لكل ما تكتب، لأنه يشعر بقوتك الحاضرة في كل سطر من سطورك.

- احتفظ دومًا كما ذكرنا ونؤكد عليه دوما، بالقديم من

مقالاتك ونماذج كتاباتك حتى تقارن القديم بالجديد، وتبصر في نفسك كيف تطورت؟ وكيف تعدل أسلوبك وتطور مع الدراسة والممارسة ومواصلة العمل الدؤوب لتكوين كاتب قوي؟

- ربما يكون لديك موقفًا أو موقفين أو حادثتين مختلفتين، أو فكرتين متغايرتين، وتحتاج الربط بينهما، ليخدما فكرة التي تكتب فيها، وهذا الربط يحتاج إلى تأمل، حتى يتم تنفيذه في صورة ذكية، مع إبراز الشاهد في كلا الحادثتين، والذي ويصب في مصلحة الموضوع الذي تكتب فيه.

- القراءة المتنوعة من ضمن فوائدها، أنها تطلعك على أساليب الآخرين في الكتابة، مما يعد تدريبًا على استخدام كثير من الطرق والمهارات في الأسلوب، ومحاولة التنقل من طريقة إلى طريقة أخرى، فهناك مواطن تحتاج الأسلوب العلمي، وأخرى الادبي، ثالثة تحتاج الأسلوب الوصفي، أو الأسلوب الجامد.. فهذا الاطلاع يُعدد عليك صور الأساليب المتباينة التي تكسبك، دراية ماهرة بطريقتك وتضيف إليك بصرًا بأسلوبك.

- تطوير الأسلوب الكتابي، لابد أن يتحرر من سلطة النقد السلبي،، ويتحرر في الوقت نفسه من رفض النقد وعدم قبوله، فالنقد مهم في عملية التطوير، والوصول إلى صورة مرضية من

المستوى اللائق لقلمك.

- محاولة الوقوف على السلبيات والعلل التي يتميز بها أسلوبك، والعمل والتركيز على تغييرها وتجنبها، وهذا الأسلوب من أنجح الطرق في تحسين التعبير والوصول إلى أسلوب أدبي وراقي رفيع، فلو كانت في النحو وقواعد اللغة فتعرف عليها وتعملها، ولو كانت في ضعف المفردات، فاحفظ الكثير منها واستخدمه، ولو كانت في قصور استخدام الوسائل والصور البلاغية من التشبيه والاستعارة والمجاز، فحاول أن تطبق ذلك.

- أدمن النظر في كتاب الله تعالى، وأكثر من قراءته على الدوام، فآياته المباركة وبيانه العذب، كفيل أن يقوم أسلوبك ويكسبك الحس الموسيقي، الذي هو الأساس للتذوق والأسلوب الجيد، والصياغة الرائعة، والكثير من الأدباء الكبار كانوا يُقرون أن الفضل الأكبر في حصيلتهم الأدبية والبلاغية إنما يعود لكتاب الله تعالى، حتى أن له تأثيره الملموس على تحسين النطق السليم، الخالي من اللحن الشاذ والأخطاء اللغوية.

- على الكاتب أن يتذوق الكلمة ويفهمها ويعرف دلالتها، فإلمامه بمعناها، يضيف إلى حصيلته اللغوية.. ومحاولة الاستفادة من المعاجم العربية في هذا الجانب، على رأسها المعجم الوجيز، أو المواقع الإلكترونية المتخصصة في ذلك،

والتي تقدم قواميس ومعاجم شاملة.

- كذلك مداومة النظر لكتب التراث الأدبي القديمة، والتي تعد المنهل العذب الذي يُثري معارف الأديب ووعيه وثقافته، ولكنه قبل هذا يُثري أسلوبه ويصقل لغته ويزيد من حبكته التعبيرية، ويطلي بيانه بالرفعة والفخامة.

- لابد للكاتب دومًا أن يعرف خطورة الكلمة وأثرها في الحياة وفي الناس من حوله، كما على الكاتب أن لا يكتب إلا في شيء يعرف،ه ويتقنه ويدرك مغزاه، حتى لا يفتي الناس بغير علم أو يضلهم، ويكون سببًا في انحراف وتضليل وتخبط كل من يصله شيء من كتاباته وكلامه.!

ربما تجد نفسك ساعة الكتابة محاطًا بكثير من الدوافع، فمرة تجد في نفسك روح الانتقام أو التعالي أو التفوق أو الحزن أو التسفيه أو الغرور والعجب، ومهما كانت هذه الدوافع، فلابد أن تقف مع نفسك دومًا وقفة تأمل قبل الكتابة، حتى تصحح فيها النية وتعدل من مسار النفس، وتحثها على تغيير دوافعها، لأن الكلمة قبل كل شيء مسؤولية عظيمة.

-كما يجب على الكاتب أن يكون واسع الصدر متقبلا للنقد، يسمع كل ما يقاله له ويقال عنه، بلا ملل أو ضجر، وليعرف وليوقن أن أي نقد يوجه إليه إنما هو لبنة قوية في مشروع

بنائه ككاتب، وليتأمل قول الكاتب الكبير المرحوم فكري أباظة:«أنحني أمام النقد إجلالا واحترامًا، وأشعر من أقصى نفسي بأنني مدين للناقدين أكثر مما أنا مدين للمقرظين»

وليتفحص الكاتب وجوه الناقدين، ليعرف الفرق بين الناقد والحاقد.! الناقد الهادف الذي يريد تقويمه وتصويبه، والناقد الحاقد الذي يريد هدمه وتحطيمه، كما لا يغتر الكاتب بالمصفقين المهللين، وليوقن أن النقد الرصين، أنفع له من كلمات الإشادة والتصفيق، لأن النقد مرآة تعكس له وجهة نظر لا يراها ولا تبصرها عينه، وقد أعجبني ما قالته الروائية المبدعة (ميرفت البلتاجي): (ابحث عن نقد جيد لكتاباتك، فالتصفيق والتهليل المستمر، لا يصنع منك كاتبًا جيدًا.)

وما رأيت في حياتي كاتبًا متواضعًا مثل الجبرتي رحمه الله في تاريخه حينما يكتب عن نفسه قائلا: العبد الحقير الفقير.

أعيدوا النظر فيما تكتبون!

ونقصد بإعادة النظر، أي إعادة الصياغة لما نكتب ونُسجل على الورق، فأحيانا يُخيل إلى أنني مع الكتابة أبدعت شيئًا كبيرًا، بلغ غايته في الحبك والسبك، ثم أرى هذه النظرة تتغير مع مرور الأيام، وتصيبني دهشة عجيبة، وأتساءل كيف كتبت بهذا الأسلوب؟ وكيف صِغت هذه الصياغة؟! كان الأولى أن تكون هذه الجملة كذا، وهذه العبارة كذا.. ومع هذا لابد من اليقين بأن الإنتاج المبكر هو البداية التي تصل بها للنهاية، ولن تستطيع الوصول للنهاية إلا إذا كانت هناك بداية.!

ونجيب محفوظ نفسه، عندما بلغ أشده واسترجع بداياته، سخر من أسلوبه في روايته الأولى (عبث الأقدار)، التي نشرها له سلامة موسى وقال: «كنت يومها أظن أنني صنعت شيئًا عظيمًا حقًا، ومرت بي الأيام، فإذا بي أراها (عبث أطفال) مش عبث أقدار!»

وهنا نقدم نصيحة وملحوظة مهمة للكتاب والمؤلفين وأصحاب القلم، وهي مستقاة من وحي الخبرة في عالم الكتابة، وصحبة الورق والأحبار والأقلام والأفكار.. فبعد كتابة أي مقال أو موضوع أو خاطرة أو محاضرة أو عنصر في

بحث أو كتاب أو مقال، من المهم جدًا أن تترك ما كنت تكتبه بمقدار ساعة أو ساعتين أو أكثر، وتشغل نفسك بأي أمر من أمور الحياة، وتُخرِج ما كنت تكتب فيه من عقلك وتفكيرك، كأن تذهب لتناول الطعام، أو احتساء الشاي، أو السمر مع الأصدقاء، أو مشاركة الأهل في شيء من شئون البيت، بحيث يذهب عنك ما كان لديك من تركيز فيه ،وتفكير في عناصره، ثم تعود إليه بعد ذلك، وفي هذه اللحظة.. لحظة العودة.. تجد نفسك تعيد وتُعدل وتُهذب وتُضيف وتحذف كثيرًا من الجمل والألفاظ والمحسنات البيانية، التي كانت غائبة عنك في الوقت الذي ابتدأت فيه كتابة ما تكتب.. وكما ذكرت: إنك تتعجب من نفسك وقتها وتتساءل: كيف كتبت هذه الجملة؟ وكيف صِغت بهذه الطريقة؟ وكيف وضعت هذه العبارة؟! أي أن الرؤية الجمالية لا تدركها ولا تحيط بها، إلا إذا خرجت من حيز الموضوع الذي تكتبه، ثم تعود إليه مرة أخرى بعد أن تسلحت بكثير من التركيز والإدراك، وأيضًا لأن العين تلتقط الصورة الأولى ولا تستطيع تغييرها، حتى لو أعدت قراءة ما تكتب ألف مرة، فقد سجلتها العين على صورتها الأولى، ولكي تزيل هذه الصورة المغلوطة للكلمة الخطأ من العين، لابد أن تحذفها أولا من ذاكرتك وتخرجها من اهتمامك.. فالعين تسجل الخطأ ولا تَعدِل عن رؤيته إلا باستراحة طويلة.!

حتى الذين يؤلفون بعض الأبحاث والكتب، عليهم أن يتركوا أبحاثهم مدة من الزمن، ثم يعودون إليها مرة أخرى، ليقوموا بما يشبه فترة استجمام، وحينما يعودون إليها، يجدون أنفسهم يجرون عليها كثيرًا من التعديلات المهمة والحيوية، وقد رصد (عبد الوهاب مطاوع) رسالة وجهت له من الكاتب الكبير (أنيس منصور) وكان يحتفظ بها في أدراج مكتبه ويعتز بها، فأنيس قيمة كبيرة، أثرى المكتبة العربية بـ ١٨٥كتابًا، وأمام هذا المؤلف صاحب الكتابات الغزيرة وقلمه الساحر الطيع، الذي يكتب به في أي شيء يريد، كان هناك شيء غريب كشفت عنه هذه الرسالة، التي أظهر مكنونها الأستاذ عبد الوهاب، وهو أمر لابد لمحترفي الكتابة والناشئين عليها أن يتعلموه.

وتأتي قصة هذا المقال حينما أرسله (أنيس منصور) لنشره بمجلة الشباب، وكان مقالًا فلسفيًا عن أفكار الشباب، وأرفق بالمقال رسالة شخصية للأستاذ مطاوع، يطلب منه أن يعطي مقاله قبل النشر لأي شاب يختاره حتى يقرأه، فإذا فهمه بيسر؛ دفع به للمطبعة، أما إذا تعسر عليه بعض أفكاره، فعليه أن يرده له ليعيد صياغته مرة أخرى، ويوضح فيه ما غمض، ولكن ماذا كتب أنيس منصور في هذه الرسالة، لقد قال: «عزيزي الأستاذ.. أخشى أن يُسيء الشبان فهم هذه الوسوسة الفنية، التي صارحتك بها في خطاب شخصي، فهي ملازمة لحياتي

كلها، ولا أذكر أنني رضيت قط عن شيء كتبته، على كثرة ما كتبت، وأنا مستعد دائمًا أن أعيد صياغة أي شيء كتبته، هل تعلم أن كتابي (حول العالم في ٢٠٠ يوم) بعد أن فاز بجائزة الدولة التقديرية، قلبت فيه فلم يعجبني؟! فجلست وأعدت صياغته كله في ٨٠٠ صفحة! ولو اتسع عمري لفعلت ذلك في جميع كتبي.

وكل الذي أخشاه هو أن يجد الشباب لأنفسهم مبررًا إذا قرؤوا بسرعة ولم يفهموا، أن يكون العيب في الكاتب وليس في القارئ، ولن أقول ما قاله أبو تمام: عندما سألوه: لماذا لا تقول ما يفهم؟ فأجاب: ولماذا لا تفهمون ما أقول؟ ولا أقول أيضًا ما قاله الفيلسوف الألماني (شوبنهاور) عندما شكا الناس من صعوبة فلسفته.. قال: لماذا في كل مرة يفتح أحد كتابًا من كتبي، ثم يسمع صوت نهيق حمار، يكون هذا الصوت هو صوت المؤلف دائمًا؟ إنني كنت أطلب إلى الساعي أمام مكتبي، أن يحاول قراءة مقالاتي، فإذا وجد شيئًا غامضًا؛ وضع إصبعي عليه.. وكنت أعيد صياغة ذلك، ولا زلت مستعدًا في أي وقت، إنها مشكلتي أنا وحدي.»

وهذا الأمر مكتشف منذ زمن كبير، ومعمول به، وقد كتب القاضي الفاضل أستاذ العلماء البلغاء (عبد الرحيم البيساني) رسالة يعتذر إلي العماد الأصفهاني عن كلام استدركه عليه

يقول فيه: «إنه قد وقع لي شيء، وما أدري أوقع لك أم لا؟ وها أنا أخبرك به، وذلك إني رأيتُ أنه لا يكتب أحد كتابًا في يومهِ، إلا قال في غَدِهِ: لوُ غُيِّرَ هذا لكان أحسن، ولو زيد هذا لكان يُستحَسن، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل، ولو تُرِك هذا لكان أجمل، وهذا أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر .»

وقال المُزَنِيّ: «قرأت كتاب الرسالة على الشافعي ثمانين مرة، فما من مرة إلا وكان يقف على خطأ! فقال الشافعيّ: هيْه! أبى الله أن يكون كتابًا صحيحًا غير كتابه»

وكان زهير بن أبي سلمى يؤلف القصيدة، ثم يجلس لينقحها ستة أشهر، ثم يخرج في أسواق للشعر ليلقيها على الناس، فينظر ماذا يقولون عنها، ولا نقول بأن يجلس الكاتب تلك الفترة التي جلسها زهير، ولكن يحاول الابتعاد ولو حتى يوما أو يومين، أو أي فترة زمنية ينسى معها ما كان يكتب، كما أشرنا مسبقا، ثم يجلس لينقح ما كتب ويراجعه جيدًا.

كما يمكن إن كان الكاتب متعجلا أن يعطي المكتوب لغيره حتى يقرأه، ليصحح ما فيه من أخطاء لم تلفت الكاتب ولم تصبها عينه، وكل إنسان له تصور وانطباع يخالف الآخر.

إن هناك حالة عارمة من الندم الشديد تجتاحني وأنا أراجع

كتبًا نشرتها في مطلع شبابي في العشرينات من عمري، وكانت ذاخرة بالأخطاء الفادحة، وكم أتمنى لو أن الدنيا عادت بي للوراء حتى أصحح ما فيها، مما يُضحك القراء على قلمي واجتهادي المتواضع، وسبحان الله.. فمن هذه الكتب من نفذت طبعاته الأولى والثانية.. ومن هنا نجد كثيرًا من الكتاب والمؤلفين، يكتبون في طبعاتهم كتبهم الجديدة الثانية والثالثة والرابعة جملة: (طبعة مزيدة ومنقحة) أي أنهم أعادوا النظر فيها وفي ترتيبها وصياغتها.

ولعل حالي هو نفس حال الشيخ العلامة الأديب الكبير على الطنطاوي حينما قال: « وإذا أنا أمضي في الكتابة، لا أكف حتى يكون القلم هو الذي يقف، ثم أبعث بذلك إلى المجلة أو الجريدة، فإذا مضى عليه يوم عدت إليه فرأيت عيوبه فقلت: ليتني نقصت من هنا وزدت هناك، وحذفت هذا أو أثبت ذاك، ثم لا يمنعني ذلك أن أعود إلى خلتي من الإسراع كرة أخرى، ولقد حاولت التنقيح والصناعة مرة، فأفسدت من حيث توهمت الإصلاح، فعدت إلى طبعي، فإذا كان في الناس من يعجبه ما أكتب فالحمد لله.»

وعملية التعديل والإصلاح والتهذيب والحذف والايجاز والشطب، كلها أمور واردة وطبيعية ومستحسنة، وتحدث مع الكثيرين من الكتاب الكبار والصغار الموهوبين والمكتسبين،

وكلها تعد من باب التدريب والتأهيل، للوصول إلى المستوى المنشود من الكتابة الجيدة..

ثم انظر أيها الكاتب وأيتها الكاتبة.. إلى هذا الرجل الذي يريد أن يصارع رجلاً وهو يوقن أنه يستطيع غلبته والقدرة عليه، لكن بعضًا من قوة هذا الخصم تُعجزه وتحيره، فيظل المصارع يفكر كثيرًا في خصمه من أين يأتيه؟ وما هي نقطة ضعفه؟ وأين تكون الضربة التي تقضي عليه؟ فيظل يحوم حوله فيستكشف يمينه ويساره، ويأتيه من أمامه ومن خلفه، حتى يجد الفرصة والمكان المناسب الذي تكون فيه ضربته القاصمة، لينتصر في النهاية ويحقق ما يريد..

ها أنت أيها الكاتب بنفس هذه الصورة، تظل تحوم حول قلمك وموضوعك الذي تكتب فيه، وقد يعييك تناوله والبدء في الشروع فيه، لكنك مع الدراسة والتأمل، والبحث والمحاولة، تنتصر في النهاية وتستطيع أن تكتب ما تريده بالصورة المأمولة.

خطأ كبير جدًا، وتصور فادح، لو ظننت أن إعادة الصياغة وتعديل المكتوب، عجز وقصور وضعف في قلمك، وأن يدخل في روعك أنك بهذا الحال، كاتب فاشل وغير محنك، وغير جدير أن تسمي كاتب!

ولكن يجب أن تعلم أن هذا أمر طبيعي، وأنه حال يعتري كبار

الكتاب، وإذا قدر لك أن ترى بعض الكتاب من أصحاب الأقلام الرفيعة، والصياغات البليغة، في تدوين ما يريدون من أفكار، بلا إعادة أو محو وتصحيح، فلا تظن أن هذا هو القاعدة، وأن هذا هو الطبيعي، فأمثال هؤلاء نادرون جدًا في محيط الكتابة، لكني أقول لك وكلي ثقة: إن هذا أمر طبيعي لا يستدعي منك أي نوع من أنواع القلق أو الشعور المحبط، الذي قد يثنيك عن مواصلة مشوار الكتابة، فلقد كان مصطفى أمين كاتبًا من الطراز الأول، ملتهب العبارة جميل الصياغة، سريع الحركة، لا يشطب كلمة واحدة عندما يكتب.. وإذا أمسك بالقلم، فإنه يجري كالصارخ، أما أخوه علي أمين، فقد كان كاتبًا ممتازًا، ولكنه على خلاف أخيه مصطفى، كان يكتب بمعاناة بالغة، ويمكن أن يمزق مقاله عشر مرات قبل أن يصنعه في صياغته الأخيرة.

يقول موسى صبري وهو يعقد المقارنة بين الكاتبين العظيمين في حادثة وقعت: ولما أبلغت مصطفى أمين أن يكتب مقالا بعد خروجه من السجن، وكان مستلقيًا على السرير السفري في الحجرة الصغيرة.. اعتدل وقال: لما أشوف ها عرف أكتب ولا لأ؟ فقلت له أنت سيد الكلمة.. وأمسك بالقلم، وفي أقل من دقيقتين كان قد كتب العمود! أما علي أمين، فذهبت إليه فكان لايزال يحاول كتابة العمود، وكان يكتب سطرًا ويمزق

الورقة، ثم يكتب سطرا جديدًا ويقترح عليه أحمد رجب أو صلاح جاهين تعديله، فيكتب من جديد، وهكذا وجدت أمامه كومة من الورق! وأخيرًا تمكن من كتابة العمود، واستغرق ذلك أكثر من ساعتين أو ثلاث ساعات.!

وهذا هو الفرق الحرفي بين الكاتب مصطفى أمين والكاتب علي أمين، مصطفى أمين يندفع كالسهم ولا يتوقف، ويقيني أنه أسرع كاتب عرفته مصر، وعلي أمين يكتب ويشطب ويعيد الكتابة، وكأنه في ولادة متعسرة.. ولكن يظل علي أمين في النهاية كاتب مرموق ومحنك وكبير.

وكذلك كان كامل الشناوي الذي أمتعنا بكثير من الشعر والمقالات التي تؤكد موهبته، فقد تحدث عنه مصطفى أمين وقال: «كان بطيئا في الكتابة، وكنت أقفل عليه باب مكتبه عدة ساعات ثم أفتح الباب وقد كتب ثلاثة أو أربعة أسطر! فهو ينحت الكلمات لا يكتب حتى يشطب ما كتب، ويمزق الورقة ويبدأ الكتابة من جديد، يتردد في كل كلمة، ويتوقف أمام كل معنى، ويختار الجملة كأنه تاجر مجوهرات، يختار فصوص الماس والياقوت.!» ،

وكان الكاتب الإيطالي فلوبير يمضي الساعات الطوال في اختيار الجملة أو اختيار اللفظة الواحد، وكان يحرص بشيء من الهوس على ألا يكرر اللفظ الواحد في الصفحة الواحدة

مرتين، وكان يجد في هذا صعوبة شديدة، وفي إحدى خطاباته لعشيقته لويز كوليه، اعترف لها بأنه يعاني آلاما شديدة، بسبب كلمتين في إحدى قصصه! وكان يهتم بما يكتب ويعنى به ويتأنى فيه أشد التأني، ويراجعه مرات عديدة، وقد ظل يكتب روايته مدام بوفاري مدة خمس سنوات متصلة، حتى جاءت بصورة فريدة من الاتقان والجمال والعمق.

كما أن هناك بعض الكتاب يمارسون الحالتين، فتارة تجده يكتب كالسهم، وتارة تجده لا يعرف من أين يبدأ، وهو في الحالة الأولى تكون الفكرة لديه قوية نافذة حاضرة، تسخر القلم لغايتها، فلا يصيبه أي بطء أو تكاسل أو حيرة، فيعرف أين يكتب وماذا يكتب؟ وكيف يبدأ؟ ومتى ينتهي؟ أما الحالة الثانية، فأحيانا تكون الفكرة موجودة، لكن البداية إليها غير معلومة أو غائمة.

وليست الإعادة والتنقيح بدعا على الكتاب، بل في الشعراء كذلك، حتى ظهر في الشعر الجاهلي من يعرف بشاعر الحوليات، مثل زهير الذي قيل: إنه كان ينقح ويعرض قبل أن ينشد، وفيه قال ابن رشيق انه كان ينظم قصيدته في ساعة، ويؤخرها في التنقيح والتهذيب خشية النقد.

جغرافيا الكتابة!

هناك عناصر مهمة يجب توفرها عند عملية الكتابة، لأنها تُساعد الكاتب أن يبدع وينتج، ويحصل قلمه على مادة غزيرة من الأفكار الرائعة والتأملات الجيدة، التي تفيد القراء والباحثين وراغبي التعلم والمعرفة والأدب، ولعل من هذه العناصر المهمة والمعروفة والضرورية ما يلي:

١-الوقت المناسب

رحم الله شيخنا الراحل وعالمنا الكبير دكتور (محمود محمد عمارة) فقد كان يبدأ كتاباته وتآلفيه وتأملاته بعد الفجر إلى وقت الظهيرة، في هذه الفترة تحديدًا، استطاع رحمه الله أن يكتب الكثير من كتاباته ومؤلفاته وأغلب مقالاته.. وكان يُسميها فترة التأمل والساعات المباركة التي تلي الفجر مباشرة، وهناك كثير من الكتاب يفضلون الليل في كتاباتهم، ويرونه الوقت المناسب للسكون الذي ينطلق فيه قلمهم ليبدع ويتألق، وكذلك عقولهم تراه الوقت الجيد الذي تهتدي فيه لكثير من الأفكار الجميلة والخليقة بالاهتمام، فهم يقضون نهارهم في نوم، أما الليل فهو زمن السعادة الحقيقية، التي يشعرون بها وهم في صحبة أقلامهم وأوراقهم وكتبهم، يقرؤون ويؤلفون،

أو هو الوقت الذي يستطيعون فيه أن يفكروا ويتأملوا فيما جَنوه من أحداث ومواقف وتعاملات في النهار مع غيرهم من الناس، وعملية الالتزام بالوقت المحبب للنفس ساعة الكتابة، ضرورية ومهمة للكاتب، حتى يقدم لقرائه شيئًا جميلاً نابعًا من مزاج معتدل.

٢- المكان المناسب

أتعجب كثيرًا من هؤلاء الذين يجدون أنفسهم تلتحم مع أقلامهم في أماكن عامة، لا تعرف الهدوء والسكينة، ولا تؤهل لعملية الاسترخاء الذهني والصفاء النفسي، الذي من الطبيعي أن تفرضه الكتابة، لما يلازمها من ضرورة الهدوء والتأني، فهناك من يحب الجلوس في (بلكونة) البيت المطلة على الشارع الصاخب، وهناك من يعشق الكتابة في القهاوي، وقد أتم سارتر كتابه الفلسفي الضخم (الوجود والعدم) في أحد المقاهي، وكان يستهلك أكوابًا هائلة من القهوة.. وبعضهم يحب الكتابة في المواصلات العامة، حيث يسرح بخيالة في العديد من الأفكار، وبعض الكتاب تستهويه الحديقة بين الأشجار والزروع والورود التي تلهمه بروعتها وبديع مشهدها، ولكنها على العموم أمزجة وأذواق وعادات، تختلف من إنسان لآخر.. وكلها تدلل بأن المكان أمر مهم جدًا، ومن ضرورات التهيئة النفسية للكاتب، حتى يستطيع أن يخرج

بقلمه ما يتأجج بداخلة من مشاعر وخواطر وأفكار كبيرة.

وأغلب الكتاب يحبون المكان الهادئ، الذي يوفر لهم القدرة على استرسال الأفكار دون أن يقطعها قاطع، أو يفزعها صوت زاعق، أو حيوان ناعق، كما يفضلون أن يجلسوا على مكاتبهم وأمامهم عدد من الكتب التي تُلهم أقلامهم، وتبث فيهم الشعور بالثقة والإحساس بالعظمة، وبعضهم يُحب أن يجلس في حجرة صغيرة حتى تشعره بنوع من الدفء والإحاطة والخفاء عن الناس، وكان هناك من يعتكف أيامًا طويلة، لا يخرج إلى الناس كلما أراد أن يكتب رواية أو كتابًا، وبعضهم يحب الحجرة الكبيرة التي يتخيل معها أنه في عالم فسيح، يستطع أن يرى الدنيا من خلاله، وبعضهم يُحب أن يكتب فوق سطح البيت في العراء، وأمام صفحة السماء، وبعضهم يحب أن ينزل إلى خندق فيكتب فيه، كل له فلسفته ومزاجه وهواه، وكثيرون تُنسيهم الرغبة في الكتابة، ما يهوونه ويشترطونه من الأمكنة والأوقات، فقد كتب ابن القيم كتابه العظيم زاد المعاد، وهو على الراحلة في ذاهبه لأداء فريضة الحج.

٣- الجلوس المريح

لا شك أن راحة الجسد مهمة، ومقدمة لراحة العقل، فلا يمكن لجسد متألم أن يكون فيه عقل متأمل أو وعي مبدع، لأن تفكير هذا العقل لا يكون إلا في شيء واحد فقط، وهو زوال هذا

الألم.. قد تأتيك فكرة أو فكرتين وأنت تمشي في الشارع، أو تعمل عملا لا يتناسب الوضع المؤهل للكتابة، فتقوم بتسجيل هذه الأفكار، لكن الكتابة المتواصلة والإبداعية، لا يمكن إلا أن تكون وأنت جالس مستريح متهيء للتفكير والابداع.. كما ينصح بمكان جيد التهوية، ودرجة حرارة معتدلة، بعيدة عن الحر الشديد أو البرد القارص الذي يزعج هدوء العقل وسكينته.

وبعضهم يشترط ليكتب شيئًا جميلا، أن تكون له حجرة معدة بالحديث من كل شيء، مكتب فخم أنيق، ومقعد وثير مريح، وأقلام غالية الثمن وأوراق بيضاء وملونة، ومقلمة عن يمينة تضم أشكالاً وألوانًا من الأقلام المتنوعة، وبعضهم يهوى القديم في كل شيء، ويرى أن هذ القديم يجعله وكأنه يعيش في زمن المفكرين القدامى، الذين ملأوا حياتنا بالفكر والعلم وقلما يتكررون، أو يأتي من هم على مثالهم.. فنجده يكتب على مقعد خشبي قديم، ومكتبًا يشبه منضدة قديمة في بيت قديم، ويكون ضوء الحجرة خافتًا، وعلى حوائطها عددًا من صور الكتاب والأدباء الذين يحبهم، أو بعض التماثيل للعلماء والفلاسفة الذين يقدر فكرهم، كل هذه الأشياء تمنحه قوة عظيمة، وقدرة فائقة على الكتابة، وتوجيه القلم لأجمل الأفكار.

المهم أن يتشكل للكاتب وضعه المريح، ويتكيف مزاجه مع ما يروق له من الأساس والظواهر المادية.

٤- منغصات القلم

لا شيء يُشعر الكاتب بالألم الكبير، مثل أن تمنع استرسال أفكاره، وتشوش عليه، وتحاول قطع الطريق أمام قلمه، وهو يشد ما في عقله من أفكار وإلهام وابداع، والكتاب الكبار حتى تستطيع أقلامهم أن تواصل مسيرة الكتبة، لا يحاولون أبدًا أن يقتربوا عما يصدع رؤوسهم بمشاغل الحياة أو طلبات المعيشة، أو مستلزمات البيت، فهم في تفكير متواصل يعيشون مع تأملاتهم وأقلامهم، وكل من حولهم يدركون ذلك جيدًا، فلا يزعجونهم بشيء ولا يحاولون طرق أبواب حجراتهم لأمر من أمور الحياة، ويدركون أنهم عظماء وأصحاب رسالة، ويجب أن يعينونهم على تأدية هذه الرسالة، تقول زوجة نجيب محفوظ: «كان نجيب عندما يبدأ في التفكير في رواية جديدة يصبح شديد العصبية، ويطلب الهدوء التام، ويثور إذا قطع عليه أحد حبل أفكاره، ويظل يسير في المنزل جيئة وذهابًا وهو شارد عن كل شيء، يستمع إلى بعض الموسيقى من أي شكل غربية أو شرقية، وفي هذه الحالة، تحرص بناته وأنا، على عدم إزعاجه بأي شكل من الأشكال، وعندما أجده على هذه الحالة، أدرك على الفور أن لحظات المخاض قد قربت لعمل جديد، فنلتزم

الصمت والهدوء، لتهيئة الجو المناسب له بقدر الإمكان، خاصة أننا نعيش في منطقة مزعجة للغاية، إلى أن يهدأ ويمسك بالقلم ليعبر البداية، وهي أصعب مراحل كتابة الرواية، وعندما يجتازها يتحرر بعض الشيء، فيرد على التليفون ويخرج للزائرين وغير ذلك من المداخلات»

ويقول هو عنها: «إنها تحملتني كثيرًا وساعدتني على تحقيق هدفي، فأنا صاحب مزاج خاص، وكان انشغالي بالقراءة والكتابة يأخذ كل وقتي، لكن زوجتي تفهمت الوضع، وتعايشت معه، وحرصت على توفير الجو الذي يمكنني من الكتابة، وحاولت بقدر طاقتها أن تبعدني عن كل ما يعطلني ويشغل فكري، لقد كانت خير معين لي على رحلتي مع الكتابة، إذ كانت تقوم بالواجبات الاجتماعية بدلا مني وتعفيني من الحرج، وتُتيح لي أن أكتب، كانت تقوم بكل أعباء المنزل، وحتى بعد إنجابها لابنتاي، كانت تعمل في صمت لراحتي، وإن كان لأحد من فضل بعد الله سبحانه في المكانة التي وصلت لها فإنها زوجتي عطية الله.»

شيء جميل أن تكون الزوجة حفية بموهبة زوجها، وتقف وراءه وتحفزه وتدفعه للأمام، وتوفر له المناخ الذي يساهم في مخاض إبداعه، ففي مستهل كتاب (في صالون العقاد كانت لنا أيام) لأنيس منصور نطالع إهداءً جميلاً رائعاً لا يقدر معناه إلا

من يعيشه من المثقفين، ولا يأسى عليه إلا من حُرم منه منهم، لقد أهدى أنيس منصور كتابه لزوجته، فقال فيه: إهداء.. إلى التي لولا تشجيعها ما كان السطر الأول من هذا الكتاب، ولولا تقديرها ما اكتملت هذه الصفحات، امتنانا عميقًا وحبًا أعمق: إلى زوجتي.. أنيس منصور.

طقوس الكتابة

لكل كاتب طقوس يقوم بها ويتبعها حينما يقوم بعملية الكتابة، وهي أمر ضروري عند الكثيرين منهم، ومن شأنها أنها تُعين القلم والعقل، وتسهم في اعتدال المزاج، الذي يؤهل لعملية الإبداع، ويحفز القلم أن يقذف بالروائع الدفينة، في وجدان وعقل صاحبه.. إنها من أهم العوامل والتحضيرات التي تُلهمهم الكتابة وتستدعي حافزها، حتى أن بعضهم إن لم تتهيأ له هذه الطقوس، فإنه لا يستطيع الكتابة، ولا يقدر قلمه أن ينطق بحرف واحد.!

ومن هذه الطقوس ما هو شيء طبيعي وعادي، ومنها ما هو غريب وعجيب لا يكاد يصدق، وهي متنوعة ومختلفة حسب المزاج والتعود للكاتب نفسه، فهناك من يدخن أو يشرب القهوة، ومنهم من يهوى الكتابة بأقلاب الحبر القديمة، التي تمتلئ من الدواة، ومنهم من يكتب على سماع الموسيقى، أو يكتب وهو على شاطئ البحر، ومنهم من يحب الصحراء وجوها الحار، فيفترش أوراقه ويمسك بقلمه، الذي يبدع حينما يغرق في عالم الرمال!

وهناك من يألف جو المقاهي ويشعر بالمتعة والنفسية المستقرة

المتوثبة للإبداع في هذه المقاهي وبين روادها، وهناك من يرى ضرورة التعطر قبل الكتابة، والكاتب الفرنسي (ألبير كامو) كان لا يكتب إلا عندما يكون واقفًا أمام البلكونة! وكان (بلزاك) لا يبدأ في الكتابة إلا حينما يضع بجواره سطلا كبيرًا من القهوة، وكان يشرب من أربعين إلى خمسين فنجانًا من القهوة، وكان (نجيب محفوظ) يستمع إلى الموسيقى قبل الكتابة وفي أثنائها، ويشرب القهوة ويدخن كثيرًا، وكان (ميكافيللي) بعد كتابته يجوب غرفته ذهابًا وإيابًا ليقرأ ما كتب، وكأنه يلقيه أمام جمهور كبير، وكان (تولوستوي) إذا أراد الكتابة يرتدي لباس الفلاحين، وكان ماركيز يرتدي لباس الميكانيكي، وكان يوسف إدريس لا يستطيع الكتابة إلا عندما يجلس وحيدًا، لذا كانت زوجته تذهب إلى بيت أبيها لعدة أشهر، حتى ينتهى من الكتابة، ولكن الأمر تطور بعد ذلك، فكان لا يستطيع الكتابة، إلا عندما تجلس زوجته أمامه، وعندما يندمج ويستغرق في الكتابة، تذهب زوجته في هدوء تام.

وكان فولتير لا يستطيع الكتابة إلا إذا جمع عددًا كبيرًا من أقلام الرصاص أمامه، وبعد أن ينتهي من كتابة ما يريد، يكسر تلك الأقلام ويلفها بالورقة التي كتب عليها، ثم يضعها تحت وسادته وينام، وكان يشرب القهوة بشراهة، وكان مارسيل بروست مصابًا بالربو، فيكتب بعد سدّ كلّ المنافذ،

مغطّيا جدران الغرفة بالورق الناعم، حتى لا يتسرّب إليه أيّ شيء يمكن أن يخدش سمعه، ويكدّر راحته، وكان يكتب مرتديًا ثياب النوم، ومنتعلا خفّا، والأديبة الجزائرية (أحلام مستغانمي) تكتب في كل وقت، دون أن يكون لها وقت معين، وتكتب على السرير وبألوان مائية غالبًا ما تفسد ملاءات ذلك السرير، والروائي المغربي الكبير (الطاهر وطار) لا يكتب في بيت الزوجية أبدًا، ويختار شهر أبريل لكتابة رواياته، فهو شهرٌ يمتاز بطول النهار، ويستخدم الحاسوب للكتابة، وعندما كان يستخدم القلم، كان يكتب في سجل، ويصحح الأخطاء بقلم أحمر، ويبقى من التاسعة صباحًا حتى الخامسة عصرًا دون طعام، وكان الشاعر الفلسطيني الكبير (محمود درويش) كثيرًا ما يمزق الأوراق أثناء الكتابة، ولم يستخدم الحاسوب للكتابة قط، فقد كان يكتب دائمًا بقلم حبرٍ سائل، وعلى ورق غير مسطر.

ومن هذه الطقوس ما يكاد العقل يعجز عن تخيلها وتفهمها، فبعضهم يحب الكتابة عاريًا، وبعضهم لا يحب الكتابة إلا حينما يفتعل مشكلة مع زوجته، وكان الشاعر الأمريكي الشهير (ادجار آلان بو) يضع قطًا على كتفه أثناء الكتابة، وكان هناك مؤلف موسيقي روسي لا يحلو له التأليف، إلا عند محطة القطار، وكان (فلوبير) يبكي ويصرخ أثناء الكتابة، وبعض

الشعراء كان يمزق شعر رأسه وهو يؤلف قصيدته، ويعترف لنا حافظ إبراهيم بأنه لا يبرع في تأليف الشعر إلا حينما يصاب بالحزن فيقول:

«أنا لا أجيد القصائد في التهاني نفسها إلا وأنا حزين» والكاتب الألماني (توماس مان) كان يحلق ذقنه، ويتطيب بأحسن الطياب، ويلبس أفخم البدلات قبل أن يكتب، وكأنه مقدم على خطبة امرأة جميلة، وكان (عبد الوهاب مطاوع) لا يكتب إلا وأمامه تماثيل الأدباء والمفكرين، وبعضهم لا تستهويه الكتابة، إلا على الأوراق الصفراء القديمة، وبعضهم يفضل القلم الرصاص، وبعضهم لا يمكن له الكتابة إلا بعد أن يمارس رياضة المشي، وبعضهم يهجر بيته وعمله، ولا يكتب إلا في فندق يروق له، وبعضهم يكتب على مؤشر الراديو وبرامج الموسيقى، وبعضهم يكتب على صوت أم كلثوم أو عبد الوهاب، وبعضهم يجد لذة الكتابة وهو مستلق على سريره في حجرة نومة، وربما بجوار زوجه، وبعضهم لا تحلو له الكتابة إلا وهو يتمشى في حجرته، وبعضهم لا يهوى الكتابة إلا داخل المرحاض، وبعضهم تستهويه الكتابة، وهو في السجن حيث يتجلى قلمه في قمة مجده في سجنه، وكان نزار يكتب وهو مستلق على الأرض أو نائمًا على بطنه، وكان كثيرًا ما يحب التأنق حينما يكتب، وكان صاموئيل بيكت لا يكتب إلا وهو جائع، وكان هنريك إبسن

لا يكتب إلا حين يضع عقربًا في قارورة فوق منضدته لحظة البدء في بالكتابة!

وقد يتعلق الوقت بالطقوس بعيدًا عن المظاهر المحسوسة، فهيكل كان لا يكتب مقال الأسبوعي إلا بعد العاشرة مساء، والرافعي إمام البيان كان لا يكتب الا بالليل، والصحفي الكبير مصطفى أمين، فكان لا يكتب إلا بالنهار وكذلك كان نجيب محفوظ، وفي الساعة الرابعة صباحًا، كان يكتب أنيس منصور، وكان أرنست همنغواي يقول: «لا أكتب أثناء وقت الظهيرة أبدًا» لأنه يكره الحر، فهو يكتب في المساء أو الصباح، وكان إذا كتب في الصباح يكتب في غرفة نوم واسعة ومشمسة، وبالقلم الرصاص وهو واقف على رجليه وينتعل حذاء أكبر من مقاسه، ويكتب على ورق آلة كاتبة شفاف، كما كان تشارلز ديكنز لا يكتب إلا عند الفطور، وكان إيميل زولا لا يكتب إلا في الساعة العاشرة صباحًا، ولا ينهض من مكتبه إلا بعد الساعة الواحدة ظهرًا.

لا شك أن هناك لحظة يكفر بها الكاتب بكل هذه الطقوس، حينما تداهمه الفكرة بلا مقدمات فيسارع إلى تدوينها سريعًا، قبل أن تذهب من عقله وتطير منه، وقد كان بعض الأدباء الكبار، يضع على مكتبه ورقات وقصاصات صغيرة، كتب فيها الأفكار التي داهمته وهو في الشارع أو في العمل أوي

مكان، مجردة من طقوسه وطرائقه ووسائله، وكان أمير الشعراء أحمد شوقي، يأتيه الوحي في أي مكان، لذلك كان لا يثق أبدًا بذاكرته، حيث كان يكتب ما أن يأتيه فوق أي شيء يجده، حتى ولو كانت علبة سجائره، ويُحكى عنه أنه كتب يومًا على فوطة مطعم، كانت موضوعة أمامه، ومرة أخرى لم يعثر على شيء فكتب على كف يده.

ومن الكتاب من لا يحب أن يكتب إلا وبجواره كتب ابن تيمية وابن القيم أو غيرهما من العلماء أو المفكرين والأدباء، ومن يحبهم ويدمن القراءة لهم، فهو دائمًا يحب أن يرى أسماءهم ماثلة حاضرة أمامه، ومستقرة في وجدانه، ويلهمه ذلك أن يكتب محاكيًا لهم في أسلوبهم، ومقلدًا لهم في طريقة كتابتهم وعرضهم للأفكار، فبروز أسمائهم يدعم قلمه بقوة شديدة.!

وهذا كاتب في العصر الحديث يرتدي العمامة، ويلبس عباءة يعود طرازها وتفصيلها للعصور القديمة، عصور العباسيين والأمويين، ويتخيل نفسه واحدًا من ذلك الزمن، ويرى أن ذلك يساعده للكتابة بروح وأسلوب هذه الأعصر.

كثير من الكتاب تزعجهم الحركة والضوضاء، ويعوقهم التشويش المتواصل أو الوقتي عن استرسالهم في الكتابة، ولقد كان الرافعي كما حكى صديقة وتلميذه: «على ما في أذنه من صمم، يزعجه أن يمر النسيم على صفحة خده، كان مكتبه إلى

جانب باب الشرفة، وكنت أجلس معه ليملي علي، فيلزمني والجو حار أن أفتح باب الشرفة لأتروح، فلا تكاد تهب نسمة بجانبه حتى يكف، وعرفت عادته هذه فكنت أغلق الشرفة والنافذة جميعا لأصلى حر الغرفة أربع ساعات أو يزيد حتى يفرغ من إملائه وكان يؤذيني من ذلك أنني كثير التدخين والحر والمجهود العصبي يزيدان الرغبة فيه، فلا تمضي ساعتان منذ بدأنا حتى يفسد جو الغرفة فأفتح الشرفة لتجديد الهواء برهة نتبادل فيها الحديث، ثم أعود فأغلقها ليستأنف إملاءه علي، وكان في غير وقت الكتابة يحب أن يقضي وقته في الهواء الطلق، حتى في برد الشتاء القارس، فكان إذا فرغ من إملائه، خرج إلى الشرفة يفتح صدره للهواء، ولم أكن أقاطعه حينما كان يُملي علي مقاطعة ما، إلا حين أشعر أنه يهتم بالانتقال في الموضوع من فصل إلى فصل، فألقي إليه ما أريد أن أقوله مكتوبًا في ورقة لأحاوره في عبارة أو لأستوضحه معنى، ثم يعود إلى إملائه وأنا أكتب صامتا، وهو لا يرفع عينيه إليك، إنما يتحدث من وراء ستار، إلى سامع غير منظور، أو كأنه في نجوى خاصة ليس فيها سامع ولا مجيب.»

بل حكى عنه الأستاذ (جورج إبراهيم) قائلا: «لما هم الرافعي أن يكتب مقدمة ديوانه، جاء إلي في جلبابه والحر شديد، فحدثني من حديثه، ثم سألني أن أهيء له مكانًا رطبًا يجلس

فيه ليكتب المقدمة، فجلس في غرفة الدار، ثم تخفف من لباسه، واقتعد البلاط بلا فرش، وبسط أوراقه على الأرض، وتهيأ للكتابة؛ فحذرته أن تنال منه رطوبة البلاط في مجلسه الطويل، فقال: لا عليك يا جورج، إني أحب أن أحس الرطوبة من تحتي، فينشط رأسي، ثم استمر في مجلسه يكتب، وليس معه ولا حواليه من وسائل العلم إلا قلمه وأوراقه، حتى فرغ من المقدمة في ساعات».

وأغلب الطقوس عمومًا.. تجدها حاضرة في الرجال، وتجدها نادرة في النساء الكاتبات المبدعات، ولعل السبب في ذلك أن لديهن مهمات كبيرة، ومسؤوليات كثيرة في البيت والأسرة وتربية الأبناء، وتتحين المرأة الفرصة المناسبة لتصف أفكارها، وليست مهيأة أو لديها وقت للتحكم فيها بعض هذه الطقوس، التي من الممكن أن تنظر لها على كونها عُقدًا نفسية.!

والعجب من ذلك كله، هذا الكاتب الذي لا ينشط قلمه إلا في دوحة الهم والغم والمشكلات، فإذا أراد أن يبدع، فإنه لا يفعلها إلا وسط مشكلة تجر عليه معارك ومنازلات وربما سباب وقذف.. هنا فقط، يعصف النشاط بقلمه، ليقدم ما ينعش قرائح القراء.!

وأحد هؤلاء الكتاب الذين يعشقون الطقوس، ويرون ضرورتها في إنتاجهم الكتابي، يؤمن بالفوضى، ولا يكتب إلا

حينما يرى كل شيء من حوله مبعثرًا هائجًا متضاربًا، فالكتب فوق بعضها أكوام، والأوراق متناثرة على مكتبه، والأقلام هنا وهناك، إنه يرى أن الفوضى ترتبط بالعبقرية ويكره النظام ويبغض الترتيب.

تحديات تواجه الكاتب

الكتابة كشجرة صغيرة، تنبت وتنمو وتكبر حتى إذا استوت على سُوقها، أثمرت وأنتجت وامتد خيرها هنا وهناك.. ومن الخطر الكبير أن تتعجل الثمر قبل نضوجها، أو تطالبها بأن تثمر وهي في مراحل النمو.! ومن ثم.. يجب على الكاتب أن يؤمن أن أسلوبه يمر بمراحل نمو وتغير وتطور، حتى يصل إلى أبهى صوره، والذي لا يدرك هذا الأمر، فإنه يتخبط ويكون عُرضة لكثير من الأمور والظنون التي قد تفسد حماسه وانطلاقته في دنيا الكتابة.!

إنك تمامًا أيها الكاتب، مثل هذا الطالب الذي يمر بمراحل الدراسة، ويؤمن أنه بعد هذه السنين سيدخل الكلية التي يرغبها ليصير طبيبًا أو مهندسًا أو ضابطًا أو معلمًا، فهو يدرس ويتعلم، لكنه لا يستطيع أن يمارس الطب أو الهندسة لأنه لم يستو بعد، ولا يليق به أن ييأس لأنه لا يستطيع أن يمارس الطب أو أي مهنة يريد وهو ما زال في مراحل الدراسة، لأن التعليم والإعداد والدراسة والمعرفة والدربة قبل كل شيء.

وهكذا الكاتب يدرس ويتعلم ويحفظ، ويواصل الكتابة ويقرأ، حتى يصل لدرجة راقية رائعة من الأسلوب الجميل

والتعبير البليغ، فالدُربة تصنع كل شيء وتحقق كل غاية، ومن هنا لا يُعييك لو كتبت مقالاً أو موضوعًا، ورأيت نفسك لم تبلغ فيه ما يعجب الآخرين، ولم يرق فيه مستواك الكتابي للحد المأمول الذي كنت ترجوه، كذلك لا يهمك نقد الآخرين لك، بأن أسلوبك غير ناضج أو رديء أو غير بليغ أو معقد، لأنك تواصل طريقك وتدريبك لتجني في النهاية أجمل صورة وأبهى أسلوب يقف الجميع أمامه خاشعًا مسلمًا.

وإذا ما نقدك أحدهم، فلتعلم أن القراءة أذواق، تختلف من شخص لآخر، فربما يوجد هناك من يضيق بأسلوبك، لكنك على الوجه الآخر قد تجد كثيرين يعجبون به.

وكما كنا ننصح من يريدون القراءة فنقول لهم: اقرأوا فيما تحبون، فكذلك ننصح الكتاب بأن يكتبوا فيما يحبون، ولا يتجشموا أنفسهم عناء ميدان ومجال لا يهوونه، لأنهم لن يكتبوا فيه بصورة جيدة، وإنما سيكون قلمهم في حالة من النفور والاستغراب والاستعجام.. بعكس ما لو كتب المرء في شيء يحبه، فإنه سوف يبدع فيه لأن روحه وهواه ومزاجه يساند قلمه.

وربما لا تتعرض ككاتب إلى مجرد النقد، وإنما تتعرض لهجوم من مخالفين في الرأي، أو رافضين لأفكارك، أو من الحاقدين عليك، وهذا الهجوم إذا لم تتسلح أمامه بالهدوء، وحظ وافر

من الثقة بالنفس، فإن قلمك سينكسر أمام رياحهم، وهو ما تعرض له إحسان عبد القدوس في مقتبل مسيرته الصحفية، حيث ناله هجوم عنيف، ونقد جارح، وإهانت بالغة، كاد أن ينهار أمامها ويترك الكتابة جملة، لولا أن قيض الله له أمه، التي ثبتته وقوت عزيمته، وعلمته كيف يصمد أمام الأعاصير.؟

في نهاية عهد فاروق لحكم مصر، كان إحسان عبد القدوس شديد الهجوم على حزب الوفد، عنيف النقد لسياساته وتوجهاته وزعيمه، لأنه يمثل في نظره السلطة الحاكمة، التي تشارك القصر والإنجليز في كثير من المظالم التي تقع على عبء الشعب المصري ومواطنيه الضعفاء، وكان قلم إحسان في تلك الفترة قلماً ملهباً موجعاً، ينفث بالحمم كما عبر هو عنه بنفسه بقوله: (إني أكتب والقلم يطق غيظًا وينفث السطور كحمم النار) وكانت مقالاته وكتاباته تصول وتجول، فيهاجم الإنجليز تارة والوفد تارة أخرى، ولا ينكمش أو يخشى من التعريض بالقصر ورجاله ومفاسدهم، ففي مقاله الصادر عام ٤/ ١٢/ ١٩٥١م كتب مقالاً تحت عنوان : (الحكومة معنا أم علينا؟) انتقد فيه النحاس باشا، واتهم حكومته بالتخاذل عن نصرة الثوار في مواجهة الاحتلال البريطاني، واختتم مقاله الساخط بقوله: (أخشى أن أقول: إن الحكومة تخشى تحرك الشعب، أكثر مما يخشاه الانجليز، خصوصًا إذا كان

شعبًا مسلحًا) وكانت نتيجة هذا الهجوم والنقد المتكرر، أو التوبيخ المستمر، أن تعرض لحملة قاسية غير شريفة، شنتها عليه صحيفة (صوت الأمة) الناطقة بلسان حال حزب الوفد، كنوع من الانتقام والثأر لحزبها وزعيمه، وركزت صوت الأمة في هجومها ضده على أنه ابن ممثلة، وأنه تمامًا كأمه لا يفهم في السياسة، ويجب عليه أن يبتعد عنها، وهنا يغضب إحسان غضباً شديدًا، ويحزن كثيرًا من هذه الإساءة التي أهانت كرامته، ونالت من كبريائه وجرحت مشاعره.. وأصابته بموجات عاتية من اليأس والإحباط، قرر معها أن يعتزل الصحافة، ويعمل بالمحاماه! وفي ظل هذا الحزن الكثيف، والكآبة المدوية، والإحباط المظلم.. تطل الأم المناضلة (روز اليوسف) على ولدها المحزون، تريد أن تعلمه درسًا مهمًا في الحياة، ربما لم يواجه مثله من قبل، فقدمت له مجموعة من مجلة (الكشكول) التي كان يُحررها سليمان فوزي باسم الأحرار الدستوريين، وبها شتائم وسباب شخصي موجع لها، فلما قرأ إحسان، اعتلته دهشة كبيرة، لأن هذا الهجاء الذي قوبلت به أمه، كان حقيرًا عفنًا رخيصاً إلى درجة كبيرة.! وهنا وبين ثنايا هذه الدهشة، ابتسمت لولدها وقالت له: «من الذي بقي يا ولدي.. الكشكول أم روز اليوسف.؟! يا بني إذا شتمك خصمك في الرأي، فاستبشر خيرًا، فهذا دليل عجزه، وإذا كنت قويًا فدع العجزة وامضي في طريقك.!»

لا تنظر لإبداع العباقرة نظرة القداسة، فيحجب تقديرك لهم ما يمكن أن تُقدمه.. فتخاطب نفسك خطاب اليائسين.! ما قيمة ما أكتب بجوار ما يكتبون؟! ليس في الإمكان أبدع مما كان! والصواب أن تجعل إنجازهم حافزاً لك ليس أكثر، فلعل في نفسك شيئًا كبيرًا لم يقدر له الظهور بعد، عندما بدأ (نجيب محفوظ) حياته الأدبية، وجد نفسه في ميدان رهيب، يجول فيه عمالقة النهضة الأدبية كالعقاد وطه حسين وهيكل والحكيم وغيرهم من الأدباء، فكان يقول: كنا نشعر حقًا أننا أمام أهرام كبيرة، وعمارات ضخمة، ولكن هذا لم يمنعنا أن نجرب حظنا وأن نقتحم الميدان، بل لعل وجود هؤلاء العمالقة في أيامنا قد أغرانا بالاجتهاد، ولم يُدخل في قلوبنا اليأس، لأن الإبداع، (الخَلق يحفز على الخَلق)، وأظن أن مهمة الذي يدخل ميدانًا من جيلنا الحالي، أخف بكثير من مهمتنا أمام هؤلاء العمالقة، ولو جئت أنا من جديد الآن، ووجدت نجيب محفوظ، وغيره من كتاب الفن القصصي بكل إنجازاتهم، لكان همي أن أحاول الوقوف غير واطئ القامة أمامهم، أحاول تجاوزهم لو استطعت.

لا يجب على الكاتب الذي يكتب، أن يربط المستقبل بطموحه ويقول في نفسه: هل يمكن فعلا أن أكون كاتبًا كبيرًا كفلان وفلان، وهذه المقارنة لا شك لها خطورتها لأنك بدهيًا ستنظر

لمستواك في هذه الفترة البدائية ومستوى من تتحدث عنهم من أعلام والكتابة، ولصغر حجمك يعصف بك تيار الإحباط، فتتقاعس عن المواصلة، وهذا خطأ كبير، لأن القلم لكي ينمو ويبلغ لحد العمالقة، لابد له أن يمر بفترات من التطوير والتدريب والتأهيل، وكثير من الكتاب حينما نقرأ لهم في شبابهم، نجدهم يختلفون كليًا حينما استووا في شيخوختهم.

ماذا لو طلب منك أن تكتب سطراً من إبداعك.. وجاء (نجيب محفوظ) وكتب بجوار ما كتبت سطرًا من إبداعه؟! هل ساعتها سيلتفت إليك أحد أو يعبأ بما كتبت؟! لا تحتار في الجواب، فلن يهتم أحد بكلماتك، لأن الأنظار كلها ستتجه إلى الأديب الكبير، والروائي المبدع، الذي حصل على نوبل! ولكن لا تيأس، فربما لا يدرك الناس موهبتك وقدراتك وقيمة إبداعك.

وأواتيك بالمفاجأة.! هل تعلم أن هذا الأديب الذي حصل على نوبل، وجذب الأنظار عنك، عانى مثل ما عانيت من الإهمال والاستنكار.. لم يكن أحد يُدرك موهبته أو يلتفت إليه، حتى أنه كان مثلك تمامًا، لو وضع كلماته بجوار ما كتب نابغة من السابقين، لما التفت إليه أحد أو أشاد به، حتى أتت اللحظة المناسبة، وعرفه الناس، وتلهفوا على أعماله وإنتاجه وصار أديبًا يشار إليه بالبنان! نعم.. لقد كانوا يرفضون أعماله رواياته، ولا

يرون أدبه حفيًا أن يظهر للناس أو يطبع على الورق، وكان مصير إبداعه دومًا إلى الدرج -درج المكتب- الذي يتسع لكل ما أبدع قلمه حينما ضاق به الآخرون، لكن نجيب لم ييأس ولم يصبه الإحباط، وواصل الكتابة والإبداع لإيمانه بأن اللحظة المناسبة لم تأت بعد، وإيمانه أكثر بأنه مبدع.

يقول: «ما أكثر الأقاصيص التي رفض نشرها، فالنشر دائمًا كان صعبًا، خصوصًا في البداية، حتى أننا كنا نختار بعض المجلات المتخصصة، مثل بعض المجلات القضائية، التي كانت تخصص معظم صفحاتها للإعلانات.. فكانت ترحب بأعمالنا لتسويد صفحاتها، لكي تسند نفسها أمام الجهات التي تصدر عنها، لكي تحصل على الإعانة اللازمة، فهذه كانت ترحب بما نكتبه.. وإنما وجدنا صعوبة بالغة في نشر أي شيء في مجلة تستحق هذا الاسم، وقد كان النشر في تلك الأيام هو المجد الأعظم، والمتعة التي لا يعلوها متعة.

بدأت أكتب الرواية، أكتب وأعرض على الناشرين فيرفضون، وأضعها في الدرج فوق سابقتها، وأسلي نفسي بكتابة القصة القصيرة.. كنت أكتب الرواية، وأدور على دور النشر من جديد، وبالطبع نفس المصير، تقبع مع أختها في درج مكتبي، وأبدأ في رواية أخرى، وما أن أنتهي منها حتى أحملها بدورها وألف بها على دور النشر من جديد، وبالطبع نفس المصير،

حتى تجمع عندي ثلاث روايات بلا نشر وهي: (رادوبيس، كفاح طيبة، القاهرة الجديدة)».

ظل (نجيب محفوظ) على هذا المنوال حتى التقى بسلامة موسى وعرض عليه رواياته، فكان يقول له: لا تصلح للنشر ولكن استمر، لابد أن تستمر، في انتظار رواية أخرى منك، إلى أن ذهب له برواية (عبث الأقدار) وحين قرأها قال: هذه تصلح للنشر»

لم ييأس نجيب محفوظ مما واجهه من إعراض الناشرين، لأنه كان يعشق الأدب ويعيش له، حتى وجد من يشجعه ويؤجج مواهبه.. إن إعراض الناشرين كان يواجهه إصرار عجيب، لأن بين الضلوع موهبة تلح عليه وتفرض نفسها على رغباته، وإذا كانت هناك شخصيات تتسم بالعناد لمحطات الإحباط، فهناك نفوس تنهار من بعض الصدمات التي تواجهها في الطريق، حينما تجد النشر عقبة كبيرة تحول بينها وبين ظهور ما تبدعه.! مثل ما أفصحت عنه الكاتبة صافيناز كاظم في تلابيب الكتابة حينما قالت: «لعلي كنت أكتب سعيًا للاستمتاع بالنشر ذاته، وتلمس رد الفعل، أدركت فيما بعد بعد سنوات كثيرة متى يمكن أن يكره الكاتب الكتابة، ومتى يعمد إلى الهرب منها، ذلك عندما توصد في وجهه الأبواب، وتغلق النوافذ، وتسد الدروب بالمحاذير، تضحى الكتابة منولوجا: حوارا مع

الذات لا يعطي ميلادا، فكيف تلد من دون أن تتلاقح كلماتك مع ذوات الآخرين؟ ما فائدة أن أكتب إن كنت لن تقرأني؟ هل من جدوى لصوت لن تسمعه أذني؟ تكلم وحدك نعم، لكن من دون صوت وإلا صرت فاقدا لإدراك الخلاء، عندما لا أكتب، فهذا لا يعني فارغة، لكنه يعني أني ضنينة بامتلائي ينسكب مهدورا، تحتقن الكلمات في الزور، وينعكس الاحتقان احمرارا في العين ويزم الفم ولا تهتز يد الطبيب وهي تدون لك دواء مانعا للاكتئاب»

لكن نجيب محفوظ مثله تمامًا مثل هذا الروائي الذي ضحى بكل شيء من أجل موهبته، وقرر أن يكون قصاصًا شهيرًا، فاستقال من وظيفته، وتفرغ لكتابة القصص، وليس لديه أي مورد للرزق غير هذه الكتابة، إنه (أرسكين كالدويل) كان يكتب من الصباح حتى آخر الليل، ويرسلها بالبريد للمجلات أملاً في نشرها، وأن ترسل له أجرها، ومضت عليه شهور وفترات طويلة لم تنشر له قصة واحدة، وعرضت عليه بعض المجلات، أن يكتب لها عرضًا للكتب الجديدة، ولم يكن أجره من ذلك، إلا الاحتفاظ بهذه الكتب التي ترسلها له، وراح يكتب ويجمع الكتب، وكلما تجمع له بعضها، قام ببيعه بربع الثمن لكي يشتري بثمنه الخبز وطوابع البريد والورق والآلة الكاتبة، وكان يقوم بزراعة حديقة بيته البالي

المتهدم بالبطاطس ويأكل منها، ومع مرور الأيام، امتلأت عنده حقيبتان كبيرتان بالقصص القصيرة، التي كتبها وأرسلها بالبريد، إلى المجلات المختلفة، وأعادتها له معتذرة عن نشرها، وظل هكذا في معاناته، وأخيرًا وبعد ست سنوات من الكتابة اليومية من الصباح حتى منتصف الليل، نشرت له إحدى المجلات قصة، وأرسلت له ثمنها عشرة دولارات، فكانت هذه المفاجأة أكبر دافع له على مواصلة الكتابة، التي انفرج لها باب الأمل، وكتب أولى رواياته ونشرها، كما اختيرت قصة من قصصه للفوز بجائزة أدبية ومبلغ ألف دولار.. فلم يصدق! وكاد أن يغمى عليه، ليس لأن المبلغ المالي كبير، ولكن لأن هذه القصة تحديدًا رفضت أن تطبعها (١٢) مجلة، أرسلها لها بالبريد، واحتفل بالفوز، وتناول أول وجبة لحم مشوي له ولأسرته منذ أكثر من سنة، وظل يكتب بلا توقف، وأصبح مشهورًا، وله روايات تحولت لمسرحيات تُدر عليه عشرات الألوف من الدولارات أسبوعيًا، ووجدت السينما الأمريكية في أعماله مادة غنية لأفلامها، وانتشرت إبداعاته في المجلات والصحف والمسارح، وبدأ يستعيد وزنه الذي فقد منه ٨٠ رطلاً في سنوات الحرمان، واستطاع بعد صبر وكفاح أن يفرض قيمته الأدبية التي تنكر لها البعض سلفًا، وحاولت هذه المجلات الآسفة أن تشككه فيها!

«أما الفيلسوف الألماني (شوبنهاور) فظل ٤٠ عامًا يكتب ويؤلف، ولا يشعر به أحد، أو يوليه بعض ما يستحقه من تقدير واهتمام، حتى بعد أن أصدر الجزء الأول من مجلده الضخم (العالم إرادة وفكر) فكان يمضي أيامه وحيدًا صامتًا، لا ينطق أحيانًا بحرف واحد لمدة أسابيع، ثم تولاه اليأس من أن ينال ما يستحق من التقدير والحفاوة العلمية، لقد عاش مجهولاً أو شبه مجهولا، ونشر الجزء الأول من مؤلفه (العالم إرادة وفكر) الذي صور فيه فلسفته الخاصة، فأبلغه الناشر بعد ١٦ سنة من صدوره أنه اضطر ليبيع نصف الكمية كورق دشت للف البضائع! لقد تجرع مرارة الإحساس بالهوان وكان يقول بأن التافهون يتمتعون بالشهرة والتقدير، بينما هو الذي أعلى لواء الحقيقة إلى أعلى مكان رفعه إليها إنسان، يعيش وحيدًا منسيًا.. وكره كل شيء واعتزل الحياة الفكرية وهو في سن الخامسة والأربعين، وانتقل إلى مدينة فرانكفورت، وعاش هناك وحيدًا فتوقف عن الكتابة ١٧ سنة متصلة، لم يكن يفعل خلالها شيئًا سوى القراءة، ثم استعاد حيويته فجأة، ونشر مقالاً فلسفيًا، ثم أصدر الجزء الثاني من مجلده، فإذا بالباحثين من كل الأنحاء يطرقون بابه، وإذا بالدعوات تنهال عليه من الجامعات الأوروبية، وإذا بالأوساط العلمية تلتفت إليه، وتضع على رأسه أكاليل المجد، وإذا بالشهرة تفاجئه وهو يقترب من سن السبعين، وهو يرقب كل ذلك متعجبًا ويقول:

بعد أن عشت حياتي وحيدًا منسيًا جاءوا فجأة ليودعوني إلى قبري بالهتاف والتهليل!

إن الكتابة رحلة تحتاج إلى بذل كثير من الجهد والصبر أمام ما يقابلها من العوائق والعقابيل، ولابد لعاشق القلم فيها أن يكون مسلحًا باليقين والتفاؤل والثبات أمام كل إعصار يريد أن يقتلع القلم من يده.!

الأسلوب السهل

القرآن الكريم هو القمة العالية في البلاغة والفصاحة والأسلوب، فترى آياته في وضوح تام لا يشوبها غموض أو غيوم، عميقة المعاني تصل إلى القلوب والعقول بكل يسر وسهولة، وكل مسلم مهما كان حظه من التعليم، يمكن له قراءة القرآن وفهم مقصده.

وعلم البلاغة لمن يدرسه ويقوم عليه، يجد أنه يقوم على الصور البيانية التي تجمل الأسلوب وتزيده متعة، كالاستعارة والتشبيه والمجاز، لكن لن يجد فيه أبدًا مكانًا للعجمة والتقعر في الجمل والألفاظ، لأن البلاغة الحقيقية تبنى على الوضوح والفهم والوصول الجميل الرشيق إلى حس القارئ ووجدانه.

فيما دون العشرين قرأت للشيخ الغزالي رحمه الله، وكلما انتهيت من كتاب شرعت في غيره، حتى أوشكت أن آتي على كل كتبه، لقد كان أسلوبه رائعًا رائقًا، ملك علي جوانحي، وسيطر على مشاعري، ولامس أحاسيس نفسي.. إن روعة الشيخ الغزالي وعبقريته، هي التي جعلتني في هذا السن، أقرأ كتبه أتفهم مقاصدها ومعانيها وأستوعب أفكارها.

وحينما مثلت بين يدي كتب العملاق العقاد، جافتها نفسي،

وفرت منها عواطفي، بخلاف كتب الشيخ محمد الغزالي.! فقد كنت مغرمًا بها غرامًا عظيمًا، وإذا ما عقدنا مقارنة بين الرجلين، فإن العملاق على قدره الرفيع، وهامته الضخمة، لا ينال الحظوة في نفسي كما ينالها الشيخ الغزالي، فالعقاد، قد اهتم في كتاباته بالنظر الفكري والصيال العقلي.. وهو نفس ما فعله الشيخ الغزالي إلا أنه زاد على العقاد باهتمامه بالعاطفة والوجدان، اللذان كان يسيطر بهما على مشاعر القراء، فيعيشون معه قضيته التي يتناولها، وليس من شك في أن انتماء الشيخ الغزالي للأزهر الشريف، يُعد مفخرة له ولرجاله، حتى أن بعضهم دُهش حينما علم أن صاحب هذا القلم الفتي، والبيان القوي، والأدب الشجي، شيخ معمم وواعظ أزهري.. وكان شيخنا (يوسف القرضاوي) واحدًا من هؤلاء الأزهرين الذين دُهشوا حينما عرفوا هذه الحقيقة، فيقول: (كان الغزالي يكتب في مجلة الإخوان المسلمين الأسبوعية في باب ثابت تحت عنوان: (خواطر حرة) وكان يشدني إليه فكره الثائر، وبيانه الساحر، وأسلوبه الساخر.

فقد كنت أرى فيه إلى جوار كونه داعية.. أديبًا من الطراز الأول، وكان الأدب والشعر في تلك المرحلة هو شغلي الشاغل، ومحور قراءاتي واهتمامي، وكان أول ما قرأته أدب المنفلوطي والرافعي، وأحيانًا العقاد، وكان الغزالي يحمل روح

الرافعي وتألقه، وسهولة المنفلوطي وتدفقه، وتأمل العقاد وتعمقه، وانعقدت بيني وبين الغزالي الكاتب على بُعد صلة عقلية وروحية عميقة، من جانب واحد طبعًا، هو جانبي بحيث كنت أترقب المجلة لأقرأ أول ما أقرأ فيها مقالتين: مقالة محمد الغزالي، ومقالة عبد العزيز كامل، ولم يكن يخطر ببالي أن صاحب هذا القلم البليغ شيخ أزهري؛ فعهدي بالمشايخ الذين قرأت لهم في بعض المجلات الدينية مثل مجلة الإسلام أن يكتبوا في غير الموضوعات التي يكتب فيها الغزالي، وبروح غير روحه، وطريقة غير طريقته.

ولكني فوجئت يومًا بأنه وقع على إحدى مقالاته (الواعظ) فسألت بعض الناس عن هذا الوصف الجديد الواعظ، أهو لقب أم وظيفة؟ فأكد لي العارفون أنها وظيفة، وأن الغزالي واعظ أزهري، وشيخ معمم، وخريج كلية أصول الدين التي أحبها وأتطلع للانتساب إليها»

ولا يحسبن القارئ أننا نسرد هنا قصة الشيخ الغزالي، وإنما سقت عنه هذا الحديث، كنموذج للكاتب الكبير صاحب الأسلوب الجميل الذي يشع سهولة وليونة، ويخاطب الإحساس والوجدان، ويملك العقل والعاطفة، دون أي تقعر أو تعقيد، غير أن الزمام أفلت والجمل كر بعضها على بعض، لأنه محمد الغزالي.!

وأحب هنا ألا يفوت المقام، دون ذكر أخطب وأبلغ من عرف القرن العشرون من الأئمة المصلحين وهو الإمام حسن البنا الذي وصفه أحدهم بقوله: بأنه كان إذا خطب فإنه لم يكن يخطب وإنما كان يسحر.

ولقد وصفه تلميذه (عمر التلمساني)، وسجل وصفاً رائعاً لأسلوبه الذي تميز به فقال: كان بسيطًا في أسلوبه لا تعقيد ولا تقعر في الألفاظ، ولا التواء في الحديث، يفهمه الجاهل والمتعلم على السواء.

ولم يكن هذا في الخطابة وحدها، وإنما أيضًا أوجده فيما كتب، فحينما تطالع كتابه (مذكرات الدعوة والداعية)، تجد سهولة لا تقعر فيها ولا تعقيد، وهو ما لمسه والدي رحمه، الذي قرأ هذه المذكرات وقال لي: توقعت أن يكون الكتاب عنيفًا في لغته لما نعرف من بلاغة صاحبه، لكنه كتبه بأسلوب بسيط ممزوج بالتشويق.!

إن السعادة الحقيقية حينما تكتشف كاتبًا سهل العبارة، لين الأسلوب، فخم الكلمات، يتحلى دومًا بالوجدان، ويأسر نفسك وعاطفتك بجملة الرنانة القوية والمزلزلة.. التي تحرك المشاعر وتوقظ الإحساس.

كان الأستاذ عبد الوهاب مطاوع، من هذا الطراز الذي

تشعر في كلماته بإنسانيته العالية، كما يربي فيك بما تقرأ له تلك المشاعر التي تنمي فيك معنى الإنسانية والإنسان، والأديب أو المفكر أو العالم أو الكاتب الذي يكون لديه كثير من الأفكار ولا يمتلك الأسلوب السهل، فإنه يَظلم تلك الأفكار كثيرًا، ولا يساعد على إخراجها بالصورة اللائقة بها، ولا يساهم في عملية ميلادها بالصورة الصحيحة، ومن ثم من الجائز جدًا أن لا يتنبه إليها أحد، ويعرض عنها الكثيرون، ولا تجد من يتبناها ويؤمن بها أو يقر بموهبة صاحبها، إن عملية انتهاج الأسلوب السهل، يجب أن تخضع لتدريب ومتابعة، وأن يواصل الكاتب جهوده في الأخذ به، فيعيد ما يكتب ويهذبه، ويعرضه على الناس من حوله، حتى يرى قبولهم له أو رفضهم له، فيبدأ في التصويب والتعديل والاستجابة، والأخذ بكل نقد أو نصيحة توجه له في ذلك.

عليه أن يقرأ كثيرا للكتاب الذين يستخدمون هذا الأسلوب، حتى ينمي في نفسه ملكة الأسلوب السهل.. والذي يهيج العقل أن نجد أناسا يزعمون أنهم مفكرون، ونرى كتبهم تنتشر هنا وهناك، فإذا ما قرأناها أصيبت قرائحنا بالتعقيد والصدمة، وسدة النفس وعبوس الفهم والإدراك من سطورها الأولى، والسبب في ذلك أن السلطة ووزارة الثقافة، تريد فرضهم على الناس، لأن أفكارهم تتوافق معهم في مناهجهم التي شرعوها

لحرب أفكار معينة لا يرغبونها، وتظل الدنيا كلها تتوهم أن أصحاب هذه الكتب مفكرون أصلاء، بينما تظل كتبهم هي البرهان الأكبر على حقيقتهم الزائفة.!

في أحيانٍ كثيرة ينصدم القارئ حينما يستمع إلى أحد المفكرين المحاضرين، ثم يُعجب بأسلوبه وطريقة إلقائه، ويدفعه هذا الاعجاب أن يشتري كل كتبه، فإذا ما قرأ أصيب بالإعياء الشديد، ولعن القراءة والنظر في الورق، لأنه لم يكن يعلم ابتداء أن هناك قطاع كبير من النابهين، لا يشترط نباهتهم في عالم القلم وميدانه، لأنهم نابغون في الخطابة والإلقاء وفنون المحاضرة.!

سُئل أحمد أمين مرة: لماذا لا تُعنى في مؤلفاتك ومقالاتك بالمبني بقدر عنايتك بالمعنى؟ فتبسم وأجاب قائلا: هذا أسلوبي في الكتابة، ولكل كاتب أسلوبه، فأنا يهمني أن يفهم القارئ من أبناء هذا العصر كتبي، ولا يهمني أن يتعلم البيان منها» ثم يصف ساخرًا أدباء اللفظ بأنهم فارغوا الرؤوس، قليلو العلم بما حولهم، قريبو الغور قد ستروا كل هذا بزخرفة القول، كما تستر الشوهاء عيبها بالأصباغ، رخصت بضاعتهم فبالغوا في التجميل في عرضها، ولفت الأنظار إليها، وشعروا أنها مزيفة فغضبوا لنقدها والتلويح بامتحانها والأمة في طفولتها وشيخوختها يُعجبها هذا النوع من الأدب.. ولقد اعترف زكي

مبارك بأسلوب أحمد أمين، ووصفه بالسهولة والوضوح، وأن أسلوبه شعبي هادئ قريب من حديث الناس، لا يتطرف ولا يشذ، حتى لتشعر أن الأديب يتكلم ولا يكتب.

«لقد كان همه أن يكتب من الكتابة، أن يقرر ويقنع، لا أن يؤثر ويمتع، ولعل منشأ ذلك أن عقله كان أخصب من خياله، وعلمه أكبر من فنه، وأن حبه للحرية والصراحة، كان يحبب إليه إرسال النفس على سجيتها من غير تقييدها بأسلوب معين.»

إن الكاتب الذي يملك سهولة العبارة، ووضوح الأسلوب، أتخيله أمامي يحاورني ويفهمني ويخاطبني بما أستوعبه وأتبينه، أما كتب الجامدين المتقعرين، فإنها أمامي كجثة هامدة، أقلبها بين يدي عساي أجد فيها بقية من روح.. ولكن لا مجيب.!

إنها الروح إذن، التي تسقي بها سطورك لتنطق عنك، وتنقل ما تريده إلى عقول القراء والمثقفين.. ولقد كنت أظن أن هذه الأحاسيس خاصة بي وحدي، ربما لضيق ثقافتي وقلة معرفتي، التي لا ترقى بي إلى إدراك ما يكتبه المتقعرون، ولكنني وجدتها نفس أحاسيس بعض الكتاب والمفكرين الكبار الذين أعلنوا نفرتهم من التقعر وأصحابه، فأديبنا الكبير (توفيق الحكيم) كان واحدًا من هؤلاء فهو يقول: «البساطة أمر مهم جداً للوصول إلى القراء، أوسع قاعدة من القراءة، والتكوين الثقافي الجيد،

يجب ألا يؤدي إلى تعقيد الأسلوب، وإنما إلى بساطته، إن كل المحصلة الثقافية يتضمنها الأسلوب، مثل شراب الليمون أو البرتقال الذي يحتوي على أكبر قدر من الفيتامينات دون أن يبدو ذلك في طعمه أو شكله.

من التراث العربي عرفت ابن المقفع، أسلوبه سهل ولا يشبه اللغة العربية المقعرة، المعقدة، التي لم تكن تظهر إلا في عهود الانحطاط، هناك الجاحظ، إنه فنان عظيم وكان أسلوبه من السهولة إلى درجة أن اتهموه بأنه يكتب باللغة العامية، نفس الشيء بالنسبة لموليير، اتهموه في البداية بأنه يستخدم اللغة العامية، إلى أن كتب مسرحياته الشعرية، وفي أدبنا العربي لم يستطع الكثيرون أن يفهموا القوة التصويرية عند الجاحظ، وقدرته على البساطة المعجزة، وقد قلده المنفلوطي في العصر الحديث» ويذكر الحكيم أن من كُتاب الغرب الذين امتازوا بسهولة الأسلوب الأديب والمفكر اللامع (أناتول فرانس) فقد كان أسلوبه صاف وجميل وسهل جدًا، ويحتوي الفكرة العميقة، في نفس الوقت كان يتحدث دائمًا عن تعبه في البحث عن أبسط الكلمات، وإذا وجد أي كلمة صعبة لا يستخدمها أبدًا كان أسلوبه في منتهى السهولة، ويذكر الحكيم أنه كان يتشرب ما يقرأه، وأنه أخذ من الأدب العربي ومن الأدب الأوروبي وقرأ للكثيرين، ولكنه لن ينس أبدًا فضل ابن المقفع

والجاحظ من أدبنا العربي، وأناتول فرانس وألفونس دوديه من الأدب الغربي، فكل منهم علمه الوضوح والبساطة والبعد عن التعقيد.

الأقلام المتقعرة

إن تعقيد العبارة، وغموض الكلمة، وتقعير الألفاظ، آفة كثير من الأدباء والمفكرين والكتاب، وهو عيب كبير يجب أن يتنبه له الكاتب، ويعرض عنه كل الإعراض، وللأسف نجد بعضهم لا يؤمن أن تكون العبقرية في ذروتها، إلا حينما يصاحبها تقعر الكلمات وغموض الألفاظ، وهناك طائفة تخلط بين التعقيد والتعمق، والسطحية والتبسيط، ومنهم من يستطيع عرض فكرته بالأسلوب الواضح المفهوم، لكنه لفهمه السابق، يُعرض عنه ليلجأ لهذا الأسى الذي يجهد العقول، ويُبدد التركيز، ويضيع جمال الأفكار.

وحال هؤلاء كحال الطبيب مع (أبي علقمة النحوي) وقصتهما الشهيرة حيث يُحكى عن أبي علقمة النحوي وهو من المتقعرين في اللغة واستعمال غريب الكلام واللفظ، أنه دخل إلى طبيب فقال: إني أكلت من لحوم هذه الجوازل فطسئت طسأة فأصابني وجع بين الوابلة إلى أدية العنق، فلم يزل يربو وينمى حتى خالط الخلب فألمت له الشراسف فهل عندك دواء؟ فقال له الطبيب: خذ خربقًا وشلفقًا وشبرقًا، فزهزقه وزقزقه واغسله بماء روثٍ وأشربه بماء الماء، فقال أبو علقمة: أعد علي

ويحك، فإني لم أفهم شيئًا، فقال له الطبيب: لعن الله أقلّنا إفهامًا لصاحبه، وهل فهمت منك شيئًا مما قلت.!

يقول الحكيم: «العقاد رحمه الله كان له قيمة فكرية وأدبية كبيرة، لكنه كان يتعمد الصعوبة، الكلمة السهلة يرمي بها جانبًا، ويستخدم كلمة صعبة بدلاً منها، وأظن أن هذا يرجع إلى رغبته في إثبات ثقافته، وأنه يفهم أكثر من المتعلمين، كانت كتابته رحمه الله فيها تعال تمامًا مثل كاتب يكتب حتى لا يفهمه أحد، وإذا قيل له: إن ما كتبه فهم بسهولة فإنه يحزن.. لقد كان هدفي أن أكون بسيطًا وتم ذلك بتلقائية دون أن أتعمده، وقليل من فطن إلى أن الأسلوب هو روح وشخصية، وكان أحد أصدقائي الفرنسيين يدعونني إلى ترك الكتابة بالفرنسية، لا لأني لا أحسنها، بالعكس لأنه رآني أتكلفها وأنمقها، وأستخدم تراكيب موضوعة وبلاغة محفوظة، مما حبس روحي وسجن شخصيتي في أغلال من الكذب والتصنع، لقد أصاب الحقيقة، لا يخلق الأسلوب الحق إلا الكاتب الصادق في شعوره وتفكيره، إلى حد ينسيه أنه ينشئ أسلوبًا، البلاغة الحقيقية، هي الفكرة النبيلة، في الثوب البسيط، هي التواضع في الزي والتسامي في الفكرة ، وهكذا كان أسلوب الأنبياء»

لم يكن الحكيم متجنيًا في وصفه لأسلوب العقاد، ولم يكن وحده من يستخشن طريقته في الكتابة، وإنما كان هناك غيره

من كبار الأدباء يرون مثل رأيه ويقولون بقوله، ويجدون حالتهم حاله.

يقول الأستاذ ثروت أباظة: (لم يشق علي أن أقرأ الأيام وأنا في البواكير الأولى من العمر، وإذا كنت قد قرأت الأيام فما أيسر أن أقرأ ما كان قد ظهر حتى ذلك الحين من كتب توفيق الحكيم والمازني وتيمور، ولعل الكاتب الوحيد الذي شق علي هو العقاد رحمه الله، فلم أستطع أن أقرأ له إلا بجهد جهيد، وعنت شديد، وقد ظل هذا شأني مع كتبه حتى الآن، ولكنني مع ذلك أقرأها معجباً مكبراً مهما تكلفني من المشقة لأنه العقاد، ولابد أن يقرأ للعقاد) و كان الحكيم أكثر صراحة في نقد أسلوب العقاد من ثروت أباظة ولعل ما دفعه لذلك قرب السن أو معاصرة الإنتاج ومضاهاته، ولكن هذه الصراحة لم تمنعه أبدًا من تقدير العقاد وإنزاله منزلته اللائقة به، كما كانت ليونة الألفاظ وسهولة التراكيب والعبارات مما يمتدحه عميد الأدب العربي فيمن حوله من الكتاب والأدباء، نعم فطه حسين تمامًا مثل توفيق الحكيم في حب البساطة وانسياب العبارة، وسلاسة الأسلوب، لقد وصف أسلوب المازني بقوله: (المازني أديب مرح يعشق الفكاهة والسخرية وكان له أسلوب خاص في الكتابة يجنح فيه إلى اليسر، وقد ظن بعض قرائه أنه يستعمل ألفاظاً عامية، ولكن هذا الظن في غير موضعه، لأن ما يظنه

عاميًا هو فصيح كل الفصاحة، غير أن جريانه على الألسن وشيوعه بين الناس قد يوحي بأنه عامي، وكان المازني يمقت الإغراب وينأى عن التعقيد، فهو يطلق نفسه على سجيتها لا يتكلف أبدًا)

أما طه حسين نفسه فكان على ذلك الطريق، ويدرك تمامًا أهمية أن يكون الأسلوب واضحاً، حتى يعرف طريقه إلى عقل القارئ وقلبه، ويحدثنا الدكتور محمد الجوادي عن هذه السمة في أسلوب طه حسين ومعه أحمد أمين فيقول:«تميز أحمد أمين وطه حسين في كتابتهما بوضوح الفكرة، وهي من أبرز سماتهما التي حببت إنتاجهما إلى القراء، كما ساعدت بقدر كبير على استحواذ أعمالهما للاحترام والذيوع والخلود.. وغني عن البيان ما تميز به أسلوب أحمد أمين من وضوح، وبعد عن المحسنات وعن التقعر معًا، حتى كاد بعض زملائه من الأدباء الكبار يخرجونه من زمرتهم، بسبب البعد عن التقليدية، وليس من شك أنه كان بإمكان أحمد أمين أن يقدم لقارئه أسلوبًا مسجوعًا أو ممتعًا، ولكنه آثر أن يعطي الاهتمام الأول للفكرة والمعنى، وكان أميل للتعبير البسيط المعبر، أما نصاعة أفكار طه حسين وجلاؤها فهو الأمر الذي لا يحتاج إلى مزيد من الحديث عنه»

وبعضهم يرجع تخلف الجيل الحالي عن الكتاب الذي يمثل

الثقافة الرصينة إلى الثقافة الخفيفة كالأفلام والمسرحيات، إلى هؤلاء الكتاب المعقدين في أسلوبهم، والذي صار حاجزا بين الثقافة وبين الأجيال الصاعدة.!

إن المهمة الأساسية للكاتب هي أن يكون أداة توصيل جيدة وممتعة بين القارئ والأفكار المختلفة، أما إذا حاول الكاتب أن يكون مصدرًا لتعذيب القارئ بالاصطلاحات الصعبة والتعبيرات المعقدة، فإنه يصبح مثل المعلم الذي يحمل الكرباج لتلاميذه، ويحاول أن يفرض عليهم ألوان المعرفة بالعنف والقوة والعقوبة البدنية الصارمة.

ولا أعرف كيف يخفى على الكتاب المتقعرين، أنهم يفسدون نشوة القراءة لدى المثقفين، ويتسببون في بوار بضاعتهم وهروب القراء من مؤلفاتهم.! تمامًا كما هرب (خالد محمد خالد) من كتاب رأس المال لماركس!

إنه يحكي عنه فيقول: (اشتريت نسخة من كتاب رأس المال لماركس وفرحت باقتنائه وشرعت أُهيء نفسي لقراءته ودراسته، بيد أنني لم أكد أجاوز فيه بضع صفحات حتى أرهقني وكلفني من أمري عسرًا.

فالكتاب ليس فيه مسحة من الأدب أو الإنشاء، وكله مصطلحات وكلمات فنية دقيقة، وبعيدة كل البعد عن طلاوة

الأسلوب وحلاوة التعبير، وعلى الرغم من أن ماركس كان في شبابه شاعرًا، إلا أن العالم فيه قهر الأديب، وأخلاه تمامًا عن فكره ووجدانه، عندما عكف على دراسة التاريخ والاقتصاد، وصياغة فلسفته ونظريته، وهكذا تميز مؤلفه الضخم رأس المال، بجفاف أدبي لم أستطع عليه صبرًا فتركته وودعته، واكتفيت بأن أقرأ لغيره عنه وعن فلسفته)

أما الأديب اللامع الدكاترة زكي مبارك، فقد كان أسلوبه سهلاً ميسورًا، وكانت تغلب عليه النزعة الوجدانية، والطلاقة ووضوح العبارة، مع أصالة المفردات، وعرف مبارك بالبساطة في التعبير والبلاغة في الأداء والفكاهة الحلوة، وكان أحمد لطفي السيد ممن عاب زكي مبارك أسلوبهم فقال عنه: (بطيء الحركة إلى حد الجمود، وهو خال من البشاشة البيانية، وأنه كاتب متعمِّل، متكلف وهو يجر كلامه بتثاقل وإبطاء، وأنه كاتب هيوب، والحذر المأثور عنه هو الذي قضى بأن تمر ثورته الفكرية بلا ضجة ولا ضجيج.)

أما تعرضه للرافعي فكتب يقول له: (ما رأيك إذا وقف لك أحد الصحفيين في معركة فاصلة، ورماك بحب التكلف والافتعال في علم الإنشاء والتأليف؟ وما رأيك إذا جازاك أحد الصحفيين ظلمًا بظلم، وقال: إنك تعيش في غير زمانك، وأن أسلوبك ليس إلا صورة من العوج والالتواء؟)

وبين هذا وذاك نتمنى ألا نصل إلى ما وصل إليه (النحوي) من فرط تقعر ولده في الحديث، ففي رواية تقول: إنّه كان لبعضهم ولد نحوي يتقعر في كلامه، فاعتل أبوه علة شديدة أشرف منها على الموت، فاجتمع عليه أولاده وقالوا له ندعو لك فلانًا أخانا، قال: لا، إن جاءني قتلني، فقالوا: نحن نوصيه ألّا يتكلم، فدعوه فلما دخل عليه قال له: يا أبت قل لا إله إلا الله تدخل بها الجنة وتفز من النار، يا أبت والله ما شغلني عنك إلّا فلان، فإنّه دعاني بالأمس فأهرس وأعدس واستبذج وسكبج وطهبج وأفرج ودجج وأبصل وأمضر ولوزج وافلوذج، فصاح أبوه: غمضّوني فقد سبق هذا الشقي ملك الموت إلى قبض روحي.

لصوص الفكر

للأسف يلجأ بعض الكتاب للسرقة أحيانًا، فينسبون لأنفسهم جهد غيرهم، وهذا اللون من اللصوصية، لا يمارسه إلا من انعدمت فيه المروءة والدين والخلق والفضيلة، لأن ما يقوم به هو أبشع أنواع السرقة، ولصوصها هم أخس أنواع اللصوص وأحقرهم.. وقد يمارسها طلاب علم، وأساتذة جامعات وباحثين، وللأسف علماء ودعاة، ولعلك الآن أدركت هذا النوع الموحش من السرقات، إنها السرقة الفكرية والعقلية.

ما أقذر هذه الفعلة وما أبشع فاعلها؟!

وأنا عن نفسي، لا أعرف كيف لهذا الأفاك أن ينام مطمئنًا هانئًا مرتاح البال، وقد سرق إبداع غيره، وجهد من حوله، وهكذا الإنسان دومًا حينما يتجرد من الدين والخلق، فإنه يفعل أشياء تئن لها الحياة والأحياء، وأحكي لك الآن صورة، أو حادثة مؤلمة من هذه السرقات، قصها علي أحد أصدقائي الذي انتسب لكلية الآداب قسم اللغة العربية فيقول: كان من جيراني معلم أزهري من عباقرة اللغة العربية، كان شغوفًا بالعلم عاشقًا للغة ونوادرها، وكنت أذهب إليه كل يوم كي يشرح لي بعض المسائل الصعبة، كانت حجرته متخمة بالكتب، وكنت أجد

في نفسي سعادة كبيرة بالجلوس معه والاستفادة من علمه، ولازلت أجد رائحة كتبه القديمة في أنفي كلما تذكرته، كان أسلوبه مميزًا في عرض النحو ومسائله، فقد حببني فيه وسهل علي مداخله، وكم كان كئيبًا حينما تنادي عليه زوجته، لأي طلب من طلبات البيت، لتحرمنا من هذه اللحظات الممتعة، وفي يوم من الأيام أعلمني أنه انتهى من تأليف كتاب في النحو، شرع فيه منذ سنوات، ويحلم بنشره وطباعته، لأنه يحمل رسالة، وهي تسهيل النحو على طالبيه، ثم حدثني أنه أعطاه لصديق من أساتذة الجامعة الأكاديميين، ليقول رأيه فيه، وكان هذا الأستاذ الجامعي كثيرًا ما يذهب لزيارة الأستاذ، ويتجاذب معه أطراف الحديث في أمور لغوية، ومرت الأيام تلو الأيام، دون أن يأتي منه أي رد في شأن الكتاب، ثم بعد إلحاح الأستاذ كان رده عليه: إن الكتاب ضاع منه وسط ركام من كتبه وأبحاثه، فحزن الأستاذ كثيرًا لأنها النسخة الوحيدة التي كان يمتلكها، ولكنه عزم على كتابته مرة أخرى، واستعد لذلك.

والحق أنني لم أسترح يومًا لهذا الجامعي منذ أن رأيته عند هذا المعلم النبيل، وكنت أشعر أن في نفسه شيئًا غير سوي، وألمح في نظرات عينيه حقدًا على هذا الأستاذ الطيب، ولم يكن بمقدوري أن أفصح عما أجده داخلي، فلعلها خيالات نفس، أو مجرد عدم راحة نفسية، ولم تلبث الأيام أن صدقت ظنوني

في الرجل، وانطباعي عنه، فقد كانت هناك طالبة جامعية من جيران أستاذي قد التحقت بكلية اللغة العربية، وجاءته يومًا لتشرح له ما غمض عليها في كتاب النحو الذي يدرس لها في الجامعة، فتناول منها الكتاب ليشرح لها ما غمض عليها، وأخذ يتصفحه وكانت المفاجأة المفجعة، إنه كتابه الذي ضاع منه، لقد سرقه صديقه الجامعي، ووضع عليه اسمه وقرره على الطلاب، لقد سرق جهده وفكره، وأخرجه للنور ونسبه لنفسه زورًا وبهتاناً، كان الرجل يحكي لي الحادثة، وهو حزين منهار، يكاد الهم يمزق صدره من شدته، كان يقول لي: لو أنني فقدت عضوًا من أعضاء جسدي، لكان أهون علي من فقد كتابي العزيز، الذي وضعت فيه خلاصة علمي وتجربتي ومعرفتي.. حتى يسرقه هذا الغادر الخسيس وينسبه لنفسه.! وضاع جهد هذا الأزهري الطيب، الذي لم يتخيل يومًا أن يكون هناك حقراء إلى هذا الحد.!

وهناك نوع آخر من السرقة، وهو سرقة الأفكار وصياغتها بلغة مختلفة، وهي أشد ما نحذر منه القراء، وقد مارسه كبار الأدباء والمفكرين يقول الدكتور السباعي: « الدكتور طه حسين في كتاب الأدب الجاهلي، ما كان إلا ترديدًا مخلصاً لآراء غلاة المستشرقين المتعصبين ضد العرب والإسلام أمثال (مرجليوث) الذي نقل آراءه كلها في كتابه (الأدب الجاهلي)

ونسبها لنفسه، وليس له في الكتاب رأي جديد نتيجة بحث علمي قام به أو تعب في سبيله.! ويمثل هؤلاء أيضاً الأستاذ أحمد أمين في كتابيه فجر الاسلام وضحى الإسلام من سرقة لآراء المستشرقين دون أن ينسبها إليهم»

وهو نفس ما أكده أبي فهر (محمود شاكر) رحمه الله، في المعركة التي دارت بينه وبين طه حسين، حول كتاب الأخير عن المتنبي، حيث أوضح شاكر (أن خصومته الحقيقية ليست مع طه حسين وإنما مع مرجليوث، لأنه صاحب المسألة، والدكتور طه مجرد ناقل لا أكثر ولا أقل، وأن المشكلة لديه في السطو على أقوال الناس وآرائهم وأعمالهم، ثم ادعاء تملكها تملك عزيز مقتدر، ثم الاستعلاء بهذا الملك المغصوب و الاستطالة به على الناس، وأبشع منه أن ينكشف أمر الغصب والسطو، ويتسامع به الناس، ويدل العلماء على الأصل المغصوب، كتابة موثقة منشورة، فلا يبالي الساطي بشيء من كل ذلك، بل يزداد جرأة وتيها بسطوه، وكأن ظهور سطوه فضيلة ترفع من قدره، وهو استخفاف من الدكتور بعقول الناس والقراء.)

والنموذج الأخير، هو تهمة بالسرقة لعالم كبير وهو الشيخ محمد حامد الفقي وقد اتهمه الشيخ أحمد الصديق الغماري بسرقة كتاب مخطوط نادر من الشيخ محمد أمين الخانجي صاحب مكتبة الخانجي، ويدعي الغماري إن الخانجي، كاد

أن يرفع على الفقي دعوى قضائية لولا وساطة الشيخ أحمد شاكر.. هذه رواية أحمد الصديق الغماري ومن المعروف أنه على عداوة شديدة مع جماعة أنصار السنة المحمدية، ومؤسسها محمد حامد الفقي، المهم أن الغماري روى واقعة السرقة بكل تشف وشماتة في كتاب له أسماه (جؤنة العطار) وهذا الكتاب لم يطبع ضمن كتب الغماري، ويوجد في ملف (بي دي إف) على الانترنت، وقد اعترف الغماري في نفس هذا الكتاب، أن الخانجي اتفق مع الفقي بعد ذلك على مراجعة بروفات تاريخ بغداد، وهذا يقوي الشك في حقيقة السرقة التي اتهمه بها.)

وكان الاتهام بالسرقة موجودًا، حتى بين الأئمة الكبار القدامي، فقد اتهم السخاوي السيوطي بأنه اختلس مما كان يعمله، وادعى عليه بأنه أخذ كتب المحمودية ونسبها لنفسه، وهي اتهامات لا دليل عليها أو برهان يُثبتها، فقد كان السيوطي أمينًا في تناول كتبه، ولا يثبت معلومة في موضعها من غير أن يشير إلى من أخذها عنه والكتاب الذي استمدها منه، ولا يذكر خبرا إلا أسنده لأصله..

كما وجه السيوطي نفس التهمة إلى القسطلاني صاحب (إرشاد الساري) حيث ادعى أنه أخذ من كتبه واستمد منها ولم ينسب النقل إليه!

في سلسلة عالم المعجزات التي يقدمها التلفزيون الألماني

تناولت (قناة RTL الألمانية) موضوعًا يتعلق بالحضارة الإسلامية في مجال العلوم، والمذهل أن هذا الفيلم يعترف بالتطور التكنولوجي الكبير الذي شهدته الحضارة الإسلامية خلال قرون عديدة.

يقول أحد الباحثين الألمان في هذا الفيلم: قبل ألف سنة تقريبًا كان العالم الإسلامي متطورا لدرجة كبيرة، بينما كانت أوربا تعيش في حالة تخلف وجهل، فالمسلمون وضعوا المؤلفات العلمية والاكتشافات والاختراعات.. وفي مجال الطب كان المسلمون يتبعون الطرق العلمية والأدوية، ويجرون عمليات جراحية، بينما الغرب كان يتبع أسلوب السحر والشعوذة للشفاء، وفي مجال الهندسة اخترعوا ساعات دقيقة جدًا وأساليب حربية متطورة، أول فكرة للصاروخ، وأول فكرة للدبابة، أول شيفرة سرية، وأول أسلوب لقفل سري يعمل بالشيفرة، وهكذا.. والشيء المميز.. أن علماء المسلمين كانوا يعتمدون أسلوب التوثيق العلمي، فكانوا يضعون اسم المرجع الذي اعتمدوا عليه في كتبهم.

الشيء الذي فعله الغرب ببساطة – كما يقول الباحث الألماني في الفيلم – أنهم سرقوا هذه العلوم بعد انهزام المسلمين، وطمسوا أسماء المؤلفين ونسبوا هذه العلوم والاكتشافات والاختراعات لأنفسهم، يتابع الباحث: (إنها أكبر عملية

سرقة في تاريخ العلم!) علماء كثر أخذوا اكتشافات المسلمين ونسبوها لأنفسهم ... أسهل طريقة لسرقة العلم أن تأخذ الكتاب وتعيد نسخه حرفيًا.. ولكن تمحو اسم المؤلف الأصلي وتضع اسمك عليه بدلاً منه!

في واحدة من المفارقات الغريبة، وذلك بعد تصديقه على أحكام الإعدام بحق العديد من قيادات جماعة الإخوان المسلمين، ضبط الدكتور شوقي علام، مفتي الجمهورية متلبسًا بنشر مقتطفات من كتاب (في ظلال القرآن) لأحد أشهر رموز جماعة الإخوان المسلمين وهو الشهيد سيد قطب، وعلى الرغم من أن المفتي أصدر العديد من الفتاوى التي تحرم السرقة العلمية والاقتباسات من نصوص الغير ونسبتها إلى السارق، فإنه نشر كلام (قطب) ونسبه إلى نفسه، دون أية إشارة إليه، كما تقتضي الضوابط العلمية

جاء ذلك في مقاله المنشور بتاريخ (٢٣/ ٦/ ٢٠١٥) بجريدة (اليوم السابع)، تحت عنوان (نجحت لعلكم تتقون)، نقل المفتي معظم المقال من تفسير الشهيد المفكر سيد قطب، فقد أخذ مقاله – كمًّا وكيفًا – من كتاب (في ظلال القرآن) وفندت صحيفة (المصريون) وقتها فقرات المقال، وأشارت إلى أن (المفتي نقل جل المقال -إن لم يكن كله- من تفسير سيد قطب، فقد أخذ مقاله كما وكيفا- من صفحتي ١٤٠ و١٤١

من الكتاب)، كما أثبت ناشطون بالوثائق أن ما فعله المفتي، ليس الحالة الأولى له، حيث اقتبس مقالات سابقة من كتب ولم يشر إلى مؤلفيها.!

وحول كتاب (لا تيأس) تقدمت الباحثة (سلوى العضيدان) بشكوى إلى وزارة الثقافة والإعلام، تتهم الداعية الكبير عائض القرني بسرقة كتابها (هكذا هزمت اليأس) مؤكدة أن الدكتور القرني سطا على ٩٠ ٪ منه ضمنه في كتابه (لا تيأس)، وصدر الحكم بتغريم الشيخ مبلغ ٣٣٠ ألف ريال سعودي، متهمة إياه بالاعتداء على الحقوق الفكرية للغير.. كما شمل الحكم سحب كتاب (لا تيأس) من الأسواق، ومنعه من التداول، أما الشيخ القرني فوجَّه رسالة إلى الكاتبة مؤكدًا أنه ليس عاجزًا عن التأليف، وقد منحته البحرين جائزة المؤلف العربي الأول، وهو الذي يحفظ القرآن وآلاف الأحاديث وآلاف الأبيات وطالع آلاف الكتب.

لا تتعجلوا التأليف

يقول الشاعر والكاتب الكبير كامل الشناوي: «إن الكتاب مسؤولية لا يقوى على تحملها إلا قادر عليها، أو جاهل بها، وأنا حتى هذه اللحظة لا أقوى عليها، ولا أجهلها!»

لا أنسى أبدًا نصيحة أحد الكتاب حين قال لي: (اقرأ أكثر مما تكتب).!

ولكنني أجد نفسي أمام هذه النصيحة في حرج شديد، فمشروعي ككاتب يقتضي مني أن أمرن قلمي على الكتابة بين حين وآخر، حتى يصل لمستوىً القراء، فالقلم يصدأ كما يصدأ الحديد، ولابد له من مواصلة مستمرة في الكتابة، والتعرف على الجديد من التراكيب والألفاظ والجمل، التي تساعدني على تجميل الأسلوب.

وأمام هذا التناقض الذي يعتري الكثيرين، يتحمل الجمهور وحده تبعات الصدمة، حينما يذهب للمكتبات، ويرى على أرففها عشرات الكتب التي تصدر لأناس غير مؤهلين للكتابة، أو مدربين على أساليبها، ولا يملكون الحد المطلوب، ليتصدروا درجة التأليف، ويقف أحدهم ليقول بملء فيه: أنا مؤلف، وأنا كاتب! ونتذكر هنا قول القائل: نعوذ بالله من

أناس تشيخوا قبل أن يشيخوا.!

ولمزيد من الوضوح أقول: إنني لا أمنعك من الكتابة، بل هي شيء ضروري للمران الذي أشرت إليه، حتى ينضج قلمك، ولكن لا تخرج من نطاق الكتابة، إلى عالم التأليف مرة واحدة، فإنك هنا بمثابة من تقطف الثمر قبل أوانه، ومن ثم نقول: اكتب كثيرا ولا تترك القلم من يدك، لكن وتحديدا في مسألة التأليف، تريث كثيرًا حتى تعطي كل شيء حقه، وتوفي كل نصاب نصيبه.. فالمزعج في الموضوع، أن الكتب الهشة الناقصة في رؤية البعض، قد تفسد عليه أذواق القراء، أو تصرفهم عن القراءة جملة، ليكتب من شاء أن يكتب، وليخط كل راغب في الكتابة، لكنه لابد أن يضع في نفسه، أنه سيتعرض لمصفاة القراءة، التي لا تبقي في وجدانها إلا النافع والمفيد، ولا تزكي إلا الهادف الجيد، أما الرديء الباهت فسيسقط، ثم تذروه الرياح إلى عالم النسيان، فلا يجد من يذكره أو يبحث عنه.!

التطور في الكتابة شيء طبيعي لدى كل كاتب، وحينما تقرأ الكتب الأولى للشيخ الغزالي رحمه الله، تجد الفرق كبيرًا بينها وبين ما كتب في مراحله الأخيرة، فقد نضج الأسلوب، واستوت العبارة، وبلغ البيان مبلغه، حتى إذا قرأت كتابًا من كتبه لا تتركه حتى تنهيه، ونجيب محفوظ نفسه سخر من أعماله الأولى.

فرق كبير بين أن تكتب ولديك أدواتك، وتملك أسلحتك من الدربة والخبرة، والذاكرة الغنية بالمواقف والحوادث والتفكير العميق والمتأمل، وبين أن تكتب وأنت حدث غر فقير في معارفك، ضئيل في ثقافتك.! فإذا قضيت عددًا من السنوات في تأليف كتاب واحد، فلا تعيب ذلك في نفسك أو تستنكره، أو تعده منقصة في تكوينك العلمي وتكاملك المعرفي، لأنك بهذا التأخير تحترم ذاتك وقلمك وقبل كل هذا تحترم القراء، بل تحترم المعرفة والثقافة التي تعطيها حقها، وتضع في جدارها بما تكتب، لبنة صحيحة قوية عفية مفيدة مانعة.

تأمل هنا ما يقوله الدكتور (إبراهيم الفقي) رحمه الله في مقدمة كتابه (البرمجة اللغوية العصبية): (هذا الكتاب هو محصلة ما يزيد عن ٢٥ عامًا من التجربة والدراسة والتدريب.. ولكن فوق ذلك كله – وأنا حقًا أعترف بذلك- هو نتيجة أخطائي الشخصية؛ التي أضاعت على العديد من الفرص والأصدقاء) (٢٥) عامًا من التجربة والدراسة والتدريب.! يا له من عمر مديد، نطلق عليه ربع قرن، استطاع خلاله، أن يخرج لنا هذا السفر الهائل المفيد، الغني بالتجارب والنصائح والتوجيهات.

ولكن دعني أقول لك: إن الاطلاع الواسع والقراءة المتعمقة المتواصلة، والدراسة الشاملة، تحمي كتابك وقلمك من هجر القراء، فالذين سلقوا مؤلفاتهم وقدموها للقراء، دون أن

يمتلكوا أدوات التأليف، كانوا أول الناس إضرارًا بمستقبلهم، وجناية على كتبهم، حتى صارت على الأرفف منبوذة مهجورة يعلوها التراب، ولا تمتد إليها الأيدي ولا تعاين سطورها الأعين، ولا يذكرها أحد بقوله، لتصير عبئًا على المكتبة، وكما قيل بيض فاسد تحلل مع الزمن.!

إن (سفيتلانا اليكسييفيتش) الحائزة على جائزة نوبل في الأدب، كانت تجلس تسع وعشر سنوات، لكتابة رواية واحدة.. ولعل هذا التروي منحها الاستواء والنضوج في العمل الذي أهلها لجائزة نوبل.!

وهذا الكلام ليس محاولة لإرهاب من يمسك بالقلم، وإنما هو دعوة وتشجيع، أن نفسح المجال لعملية التزود بالمعرفة والقراءة الهائلة، والمراجعة المتكررة، ولعلي هنا أستحضر قول (إبراهيم الورداني) في رده على الأستاذ العقاد في معركة أدبية نشبت بينهما حيث قال: (وأنا لم أبدأ فأكتب يا والدي، إلا بعد أن قرأت كل غرف دار الكتب في باب الخلق ودمنهور، ثم قرأت الحياة على صفحة البحر والأرض والسماء..)

أما كتَّابنا اليوم.. فمنهم من كتب بعد قراءة عشرة كتب أو عشرين كتابًا، وكأنهم يقولون للورداني: لا تضيق واسعًا يا إبراهيم.!

كما نجد الكتابة ملحة لدى البعض، فهي تريحه وتشعر نفسه في إجرائها بالراحة، فقد يستخرجون معنا جديدًا ربما لم يقع عليه غيرهم، أو يضيفون خبرة مستحدثة جنتها وتحصلت عليها معرفتهم، كما يرى بعضهم، أن الكتابة تعبير عن عشقهم للكتاب، ووفاء بهذا الحب الذي لا تمثل القراءة رافده الأوحد، وإنما كان لابد للقلم أن يشاركها فيه، فالقراءة ذخيرة ووقود، تشحن به نفسك لتخرج في النهاية وبعد زمن طويل، من هذا الشحن بآراء وأفكار وأطروحات جيدة، لابد للقلم أن يعبر عنها ويتناولها لتصل لكل الناس.

وهنا من سؤال يطرح نفسه: هل من الضروري لكل قارئ أن يكون كاتبًا؟ إن الكتابة موهبة وإبداع، وليس شرطًا أن يتملكها كل من يهوى القراءة أو يقتني الكتب، وإلى القراء الذين يجدون في أنفسهم العجز عن الكتابة، لا تتحسروا أو تأسفوا على هذا العجز، لأن حبكم للقراءة وتذوقكم لمعانيها، إنما هو في حد ذاته إبداع وموهبة، وله فائدة كبرى وعظيمة في حياتكم حينما تمنحكم الحكمة والبصيرة والثقافة والمعرفة..

يقول رولان بارت: إن القراءة بذاتها فعل إبداعي.. فلماذا تجشمون أنفسكم مالا تطيقون، وترون أن موهبتكم ناقصة، ولن تكمل إلا حينما تمسكون بالأقلام، وهي عالم آخر له أدواته وأسبابه ومنحه.. لقد باتت الكتابة حقلًا مشاعًا، لا

يخضع لشروط أو معايير، هناك كثرة من الكتاب الطارئين والفضوليين، اختاروا كما يقال (تجريب) حظهم وركوب موجة الرواية الرائجة، جميع هؤلاء يبحثون عن فرصة، ومعظمهم من القراء، ومن يرصد حركة النشر الأدبي، يلحظ حال الطوفان الهائل الذي يسود أفق الكتاب، يكفي الاطلاع على أعداد الروايات التي لا يمكن إحصاؤها، ما خلا دواوين الشعر الغزيرة، النشر سهل لدى معظم الدور، ادفع أيها الكاتب ننشر لك، والمصيبة الجسيمة أن الكتب تنشر بما تحوي من أخطاء فادحة وهنات.

«إلى أين تمضي كل هذه الكتب في عالمنا العربي؟ يجد الناشرون لها حلاً سهلًا إلى المستودعات، وعندما تضيق المستودعات، فإلى التوزيع المجاني والعشوائي أو التلف والتدوير، والناشرون كل ما يهمهم، إفراغ المستودعات لتملأ من جديد. أيها القارئ لماذا لا تكتب؟ البازار مفتوح، جرب حظك، أما كفاك كم أمضيت من ساعات تقرأ وتقرأ؟ ألم يحن دورك لتكتب، فيقرأ الآخرون؟ ولكن إذا غاب القراء فمن يقرأ؟ إننا نكتب وكفى.»

وقد حاول الدكتور (علي العمري) في أطروحة جديدة وذكية ورشيدة ومتوائمة مع الطموح الجارف، أن يثني هؤلاء الشباب الجريء على التأليف وعالمه، لينقذ المعرفة والثقافة من إضافاتهم القاصرة العاجزة، فلم يحرمهم من التصنيف

وفي نفس الوقت، حافظ على هيبة التأليف في فكرته المتوازنة، يقول العمري: «قديمًا ذكر سلفنا الصالح أسبابًا للتصنيف، منها اختصار كتاب مطول، أو شرح كتاب مختصر أو الكتابة في شيء جديد، أو تتميم موضوع قديم، واليوم تجددت صور الكتابة والتأليف، وفي تقديري أنه يمكن لبعض الشباب أن يكونوا من أصحاب التصنيف الذي هو أقرب إلى الإعداد منه إلى التأليف.! ومثال ذلك لو انبرى بعض مستخدمي الإنترنت، لجمع أهم المقالات التي مرت عليهم طوال العام، وتصنيفها حسب الموضوعات، مع مراعاة الاختيار في حجم المقالة وسهولتها وقربها من القراء، وعرض ذلك على خبير، لكان لهذه المقالات المجموعة دوي وتأثير، وكذلك لو انبرى شخص آخر لاختيار ما سمعه من أشرطة أو مقطوعات، أو ما قرأ من قصص أو مقابلات، واشترط في اختياره الجودة والتجديد وإبداع الإخراج، ومثله شاب ثالث، يضع في ذهنه عنوانًا مهما بالغ التأثير والحاجة للجيل، فيجمع الشبيه إلى الشبيه، من البحوث والأشعار والمقالات والقصص والصور الإبداعية، إضافة إلى الكتب والمجلات والانترنت، لكان عملًا جادًا ونافعًا.»

الغيرة الإبداعية

ويح الغيرة.. إنها على قدر بشاعتها ووحشتها ولهيبها، إلا أن لها صورًا زاهية، وفوائد جمة، ومشاهد إيجابية مضيئة، نعم.. فعلى قدر ما تَجُر من الحسد والذي ربما يتطور للحقد والبغض والعداء، إلا أنها أثبتت في بعض المواضع، أنها جيدة ومطلوبة، كتلك التي يكون فيها منافسة شريفة وسباق راقي، ولعلك تجد هذا أكثر ما تجده، في الغيرة بين العلماء والكتاب، أو الأدباء والمفكرين والصحافيين، فإذا ألف أحدهم كتابًا، سارع الآخر ليؤلف كتابًا، وإذا كتب أحدهم موضوعًا أو مقالا، هرول نظيره أن يكتب موضوعًا أروع، أو مقالا أكثر إثارة وبريقًا.. فلماذا لا يستفيد الكاتب من هذه العملية النفسية التي تدفعه للأمام في ميدان الكتابة؟

إن هؤلاء جميعًا يصدق فيهم ما قاله ابن جبير رحمه الله: (استمِعوا لعلم العلماء، ولا تصدقوا بعضهم على بعض، فو الذي نفسي بيده إنهم أشد تغايرًا من التيوس في زرابها).

وهذه الغيرة على قدر ما تفسد النفوس، وتقتل الود، على قدر ما تثري الحياة الثقافية والعلمية، وهو نفس ما حدث في عصر الأدباء والمفكرين في الثلاثينات والأربعينات والخمسينات

والستينات، حيث انتشرت المعارك الأدبية، وقدمت للثقافة أزهى عصورها وأنضر مراحلها.

انظر لهذين الكتابين من أعظم كتب الإسلام وأجل أسفاره، وهما شرحي البخاري (فتح الباري) لابن حجر العسقلاني و(عمدة القاري) للبدر العيني، كان الإمامان يعاصر بعضهما بعضا، وكانت بينهما غيرة شديدة وجفاء، دفعتهما إلى نوع من التنافس في الإبداع والتأليف والحراك العلمي، وقد بلغت المنافسة بينهما حدًّا بالغًا، فتبادلا عبارات القدح والهجاء والتشهير، مما يخرج عن مناهج الجدل بين العلماء، والتوقير والرزانة والهدوء والحكمة.

ففي عام (٨١٧هـ) بدأ ابن حجر تأليف شرحه فتح الباري على صحيح البخاري، فأتبعه البدر العيني بتأليف كتابه عمدة القاري غيرة ومنافسة، وكان البدر العيني يطلع على شرح ابن حجر جزءًا جزءًا، فيشرع لانتقاده في مواطن كتابه، ويعترض عليه بطرق لا تخلو من عنف وتحامل.

وحينما تقرأ في العمدة، لا تجد العيني يذكر ابن حجر بالاسم أو الكنية أو اللقب في كل المواضع التي ينتقده فيها، ولكنه يكتفي بقوله (بعضهم) ثم يُسند إليها قال أو ذكَرَ أو زعم أو نحوها، وكان من نتائج هذا الصدام العلمي الرهيب، انعكاسات مهمة على الساحة العلمية، حيث أدت إلى ظهور كتاب عمدة

القاري في شرح صحيح البخاري، والذي سطر فيه اعتراضاته على فتح الباري، حيث دهش ابن حجر حين اطلع على عمدة القاري، وعجب من تحامل العيني عليه، مما اضطره أن يرد على اعتراضات العيني على شرحه، فألحق تعديلات بكتابه بعد ظهور عمدة القاري، وألف كتاب (انتقاض الاعتراض) وكان مما قال فيه بعد البسملة: «اللهم إني أحمدك على ما ألهمت من المحامد، وأشكرك على فضلك البادي والعائد، وأستنصرك على كل معاند ومُكائد، وأعوذ به من كل شر وحاسد»

وهكذا صار أحدهما يفتش وراء صاحبه لينتقده، أما الآخر فصار يجوّد مادته خشية الانتقاد، ولكن ابن حجر كان له تعليق ساخن مدو على عمل البدر العيني، فذكر صراحة أنه يأخذ كلام غيره فينسبه إلى نفسه من غير اعتذار، جاء ذلك في كتابه انتقاض الاعتراض حيث قال: «وما ظننتُ أن أحدًا يرضى لنفسه بذلك، وإذا تأمل مَن يُنصف هذه الأمثلة عرَف أن الرجل هذا عريضُ الدعوى بغير موجب، مُتشبِّعٌ بما لم يُعطَه، مُنتهِبٌ لمخترعات غيره؛ ينسبها إلى نفسه من غير مراعاة عاتِبٍ عليه وطاعن، مِمَّن يقف على كلامه وكلام مَن أغار عليه، ولو حلَفتُ أنه لم يُخْلِ باباً من أبواب هذا الكتاب على غزارتها من شيء من ذلك لَبَرَرْتُ، وشاهدي على ذلك عِدْلٌ من كلامه نصًا لا اختصارًا، بل مُصالقةً ومُناهَبَةً، حتى إنه يغفل فينقل لفظة "

قلتُ " الدالة على الاختراع له والاعتراض منه، ويكون ذلك كله لمن سبقه.»

وترجع أسباب هذه الغيرة أو التنافس إلى عدة أسباب ربما تكمل بعضها بعضا، ومنها اختلاف المذهب، فقد كان ابن حجر شافعيًا والعيني حنفيًا، ثانيا- أنهما كانا أبناء مهنة واحدة، فابن حجر قاضي قضاة الشافعية، والبدر قاضي قضاة الحنفية، ثالثًا- الرغبة في التفوق والتفرد والصدارة العلمية، رابعًا- تخصصهما وتبحرهما في علم واحد وهو على الحديث، خامسًا- كثرة التلاميذ والأنصار لكلا الشيخين، وهو ما له من أثر في إذكار الخصومة وإشعال نارها.

ولم ينس العالمان وهما في ظل هذه الغيرة الطحون والجفوة العاصفة ما بينهما من دين وحقوق، فرغم هذه المشاحنات التي قادت إليها المنافسات؛ فإن العيني قد عاد ابن حجر في مرض موته سنة ٨٥٢هـ ومات العيني بعده بعامين.

وكان الذهبي يقول: (كلام الأقران بعضهم في بعض لا يعبأ به لاسيما إذا كان لحسد أو مذهب أو هوى، والحسد يعمي ويصم ومنه التنافس للحصول على جاه أو مال، فقد يطغى بعضهم على بعض ويطعن بعضهم في بعض من أجل القرب من سلطان أو الحصول على جاه أو مال).

وكان (الرافعي) رحمه الله في بداية حياته حيث كان يقول الشعر ويركز عليه يرى نفسه ندا لحافظ ابراهيم ويوازن بين حاله وحاله ويضع في قرارة نفسه، أن لديه القدرة أن يبلغ مبلغه، ويصير في رتبته ومكانته إذا أراد، فلا يكاد حافظ يخطو خطوة، حتى يقضي الرافعي خطوة مثلها، فلما تفوق عليه حافظ بالشهرة والجاه والأنصار وعلاقته من البارودي ومكانته من الإمام محمد عبده، راح الرافعي يجد الهمة حتى ينال ما نال حافظ، ويكمل النقص الذي تفوق عليه فيه، فأتم صلته بالبارودي، ونشر في الصحف، وصارت له علاقة عظيمة بالأستاذ الإمام، وأصبح اسمه يتردد في الصحف، ولكن هذه المنافسة، شريفة راقية مهذبة كريمة، لم تعكر صفو المودة والتقدير، فقد كانا صديقين قبل كل شيء، وظلا على هذه الصداقة أكثر من (٣٠) عامًا إلى أن مات حافظ ورحل عن الوجود.!

كان الرافعي في ٢٣ من عمره، فإذا بحافظ ينشر ديوانه، ويقدم له بمقدمة أدبية بليغة، كانت يومها حديث الأدباء الذين استقبلوه استقبالاً جيدًا وأثنوا عليه ثناء عظيمًا، فلما رأى الرافعي ذلك غار غيرة شديدة، وعقد العزم على إصدار ديوان له، ولم يكتف بهذا بل رأى أن يصدره بمقدمة، كتلك التي صدر بها حافظ ديوانه، وصدر ديوان الرافعي وهو في هذه السن الصغيرة، بعد ديوان حافظ بفترة قليلة، وكانت له

مقدمة فصل فيها معنى الشعر وفنونه ومذاهبه وأوليته، حتى أن الأديب الناقد إبراهيم اليازجي تشكك أن يكون الرافعي ذلك الفتى الصغير هو كاتبها، فهي توحي بأن كاتبها ليس من ذلك العصر، ووصف العريان هذه الغيرة بقوله: «كانت بينه وبين حافظ منافسة، لكن حافظ كان يتمتع بالشهرة والجاه والحظوة عند الشعب، تلك الشهرة التي ألهبت غيرة الرافعي وحفزته على الكفاح وحمسته إلى استكمال أسباب الغلبة»

ونقل عن جورج ابراهيم قوله: لما طبع الرافعي ديوانه جلجلت له كثير من الصحف والمجلات، وعلى رأسها جريدة المؤيد التي نشرت مقدمته في صدرها، كما أهديت نسخة منه إلى الشيخ ابراهيم اليازجي وهو وقتها أديب العصر، فكتب عنه وقال: «فإن كان الناظم كما بلغنا لم يتجاوز الثالثة والعشرين من سنيه، ولا ريب أن من أدرك هذه المنزلة في مثل هذه السن، سيكون من الأفراد المجلين في هذا العصر، وممن سيحلون جيد البلاغة بقلائد النظم والنثر» ولم ينثن الرافعي عن طريقه واهتمامه بالشعر، فانطلق حتى أصدر الجزء الثاني من ديوانه ثم الجزء الثالث، حتى تألق نجمه وبرز بين الشعراء المعدودين، كما لقي الحفاوة من الأدباء بما لم يلقه إلا القليلين من أدباء هذه الأمة، حتى أن الأستاذ الإمام محمد عبده قال فيه قوله الشهير: أسأل الله ان يجعل للحق من لسانك سيفا يمحق به الباطل

، وأن يقيمك في الأواخر مقام حسان في الاوائل) وقال عنه الزعيم مصطفى كامل: (سيأتي يوم إذا ذكر فيه الرافعي، قال الناس: هو الحكمة العالية مصوغة في أجمل قالب من البيان) وظل كذلك حتى عام (١٩١١م) فانحرف عن مسار الشعر إلى مسار الأدب، ليلمع في سمائه، ويكون من زعمائه ورواده.

سمعت من دكتور جامعي يُسيء لعالم كبير من العلماء المرموقين الذي يملك عشرات المؤلفات، وكان من ضمن ما قال عنه: إنه لم يؤلف كتابا واحدًا أكاديميًا، والحق أن هذه الدعوى العابثة، تحتاج لنظر، فالكتاب الحر، كتاب رشيق ورفيق خفيف الظل، يفوح بالإبداع، وهي السمات التي يفتقدها الكتاب الأكاديمي في أغلب الأحيان، الكتاب الحر يخاطب وجدان الناس، ويمازج عقولهم، ويلامس أرواحهم، وعالمنا يكتب بروح الأديب، ولا يمكن للأدب أن ينحصر في قفص الأكاديميين، وأقول لهذا المتجني، إذا كان هذا العالم لم يؤلف كتابًا أكاديميًا واحدًا، فأنت وغيرك، لا تستطيعون كتابة ما كتب المبدع الكبير! إن هناك حسدا وحقدا من إقبال الناس وطلبة العلم على كتب الشيخ، وهو من جعلت هذا الأكاديمي يفور ويثور.

وما زلت أتذكر شيخا من شيوخنا كان مولعًا بالتقسيمات البحثية حينما عرضت عليه كتابي (معركة الداعية) وسألته عن رأيه فيه، فقال لي بما أشتم منه رائحة الاستخفاف: أنا فهمت

كتابك هوه بتجيب حتة من هنا وحتة من هنا، وبتتكلم يعني في إطار واحد.. فقلت له: فعلا هوه حتة من هنا وحتة من هنا.!

ولاشك أن هذا هو ديدن الأدب، بل ديدن الكتابات الفكرية التي تحمل الروح، وتحرص على الإبداع، لأنها تستقي عبيرها من عزائم النفس وعطاءات الروح، وإبداعات القريحة.. فهي تنطلق من الجمال، وتكتب بالجمال، وتدون بالجمال، تدور فقط في هذا الإحساس بالجمال والخيال، ولا يحركها الثقل في التدوين، أو التكلف في البحث، أو الشعور بضيق التصنيف..

وإذا كان ديدن الكتاب الأكاديمي أنه شامل جامع، يمتع الباحثين ويروي غلة الطالبين، فإن الكتاب الحر هو كتاب الذوق والجمال والسحر، كتاب الوعي والوجدان والعاطفة، هو كتاب الإبداع والأشواق والإمتاع.

وكان أديبنا الكبير يدافع عن نفسه وهو يقول: «إنني مثل النحلة في البستان، التي تتنقل هنا وهناك من زهرة إلا أخرى، تمتص الرحيق وتخرج للوجود عسلا حلو المذاق.»

وفي مشادة كلامية مع أحد الأساتذة في الجامعة الازهرية حول داعية شهير.. كان هو يمقته ويحطه، وأنا أحبه وأُعليه، فكان مما رماه به من الشبهات قوله: إنه لم يكتب كتابًا أكاديميا؟!

لقد تبين لي أن أغلب كتابات أعلام الفكر والأدب والدعوة

على هذا المنوال الحر في الكتابة، وأن كل تراثهم لم يكن أكاديميا، وإنما جله مقالات كتبوها وجمعوها في كتب أبهرت جماهير المثقفين، حتى أننا نجد هذا العلم الكبير وأديب الدعوة الساحر وشيخ الإسلام في زمنه شيخنا (محمد الغزالي) كانت كل كتبه مقالات مجمعة، تحمل بين دفتيها أفكار الإصلاح والتوجيه والدعوة، بل حملت هموم الأمة ومشكلاتها والدفاع العنيف عن مقدساتها.

وكثيرة غيره من الأقلام الفريدة المؤثرة، التي لم تكن تسلك إلا هذه الطريقة لإيمانها برونقها وخفتها وعمق تأثيرها على النفس والروح، ويبدو أنها أمزجة في التصنيف، فهناك من يهوى الروح الأكاديمية ككتب الشيخ القرضاوي، وهناك من يؤمن بأن الادب والأفكار والاطروحات ومشكلات وقضايا المجتمع، لا يمكن أن يتم تناولها بأفضل من هذه الطريقة الحرة التي لا تخضع لقيود وشروط، ثم ما لبثت أن طالعت كلام الأستاذ المفكر الكبير الأستاذ (أنور الجندي) حول هذا الموضوع في كتابة (شهادة العصر والتاريخ) حيث يقول: «استطاع عدد غير قليل من الكتاب جمع آثارهم وإبرازها على هيئة مؤلفات أو كتب أو دراسات، حتى أنه يمكن القول بأن آثار أغلب الكتاب الكبار أمثال طه حسين والعقاد والمازني والزيات وجبران وميخائيل نعيمةو وهيكل وسلامة

موسى، قد بدأت في هيئة مقالات ثم نشرت في الصحف والمجلات في كتب، ولذلك أمكن لبعض الباحثين أن يقول إن أدب الثلاثينات وما بعدها كان أدب مقالات مجمعة، وربما امتدت هذه الظاهرة إلى اليوم، وإنه فيما عدا الدراسات الجامعية، والرسائل الأكاديمية، فإن كل أثارنا الأدبية مقالات مجمعة، وإن كان بعض الكتاب قد استطاع في ذكاء أن يربط بين المقالات المنوعة، وأن يبرزها في انسجام، وإن بعضهم الآخر عجز عن هذه المحاولة»، وإذا كانت الكتب الأكاديمية تستمد سطورها من العقل، فإن الكتاب الحر يستمد طاقته من العقل والروح معا، ثم انظر وتأمل هذه الغيرة العنيفة التي دبت في نفس الكاتب العملاق عباس العقاد، حينما صدّر سعد زغلول كتاب الرافعي عن إعجاز القرآن بقوله: «كأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم».. لقد كتبها في الوقت الذي كان العقاد كاتب الوفد الأول، والقريب من سعد زغلول، ولكنه رغم هذا القُرب، لم يثني عليه أو على مؤلف له، كما أثنى على كتاب الرافعي، وكان هذا الثناء بداية المعركة، أو قل كانت هذه الغيرة بداية الخصومة العنيفة، حتى دفعته الغيرة ليدعي أن الرافعي تأول على سعد، ونسب لنفسه مالم يقله سعد، بل قال ما هو أبعد من ذلك حينما سئل: أتراك أحسن رأيا من سعد؟ فقال وما سعد؟ وما رأي سعد؟! وكان اسم سعد وقتها كالعلامة التجارية لتجارة لا تبور.

أخلاق الكاتب

يقول الإمام الشافعي:

وما من كاتبٍ إلا سيفنى ** ويُبقي الدهر ما كتبت يداهُ

فلا تكتب بكفك غير شيءٍ ** يسرك في القيامة أن تراهُ

ويقول العالم البهي الخولي رحمه الله: «ليكن همك الأول من قلمك، أن تنقر به على قلب ليستيقظ، وتنفس منه في نفس لتهب وتنهض.. واذكر دوما أنك قائد وأنك طبيب، واذكر دائما أن مهمتك الكبرى هي إحياء الضمائر، وإثارة الهمم، إلى المثل العليا»

ويقول جيفارا: (لا شيء أسوء من خيانة القلم، فالرصاص الغادر قد يقتل أفرادًا، بينما القلم الخائن قد يقتل أممًا)

ويقول توفيق الحكيم: " الكاتب الحق هو مثل يُحْتّذى به في باطنه وظاهره، وإن لم يكن كذلك فهو إذن مهرج يلبس للناس على الورق ثياب الملوك..فإذا خلا بنفسه خلعها، فبدا في حقارته كأنه شحاذ ..الكاتب لا يخادع الناس فيقول لهم ما لا يعمل.. واجب رجل الفكر والقلم أن يُدْخِل على البشر الإيمان بأن في إمكانهم أن يسموا على أنفسهم، وهذا يفرض

عليه أن يعيش هو حياة سامية"

بعض الصحفيين لكي ينجو من شبح الإفلاس والتفاهة، يلجأ دائما للكذب والهجوم وتشويه الآخرين، واتهام الغير بما ليس فيه، حتى يحدث حياة مليئة بالقلق المستمر، ويظل في عراك دائم، ويقنع قراءه أنه يكتب في المليان، وبعضهم لكي يكون ملء السمع والبصر ولكي يجلل اسمه وذكره في القنوات والصحف، يلجأ للإساءة للدين والعقيدة والطعن في الثوابت المقدسة، تمامًا مثل صحيفة مفلسة في القيم، وتريد أن تلفت إليها الأنظار، فتلجأ للحديث في جرائم الجنس، والكذب السياسي، وتشويه الآخرين، وكتابة قصص خيالية واهية، تكتبها أقلام كاذبة منحرفة، لا تعرف معنى الشرف والمروءة، ولا تعرف قيمة القلم ومكانة القلمة.

وانظر لهؤلاء الذين يعرفون بحقيقة الأدب فيقولون:"إن مسمى الأدب أُخذ من التأدب الأخلاقي، لأن مهمة الأدب تأديب النفس وتهذيبها، كون الأدب لغة تثقيفية مؤثرة تترسخ بالنفس وتؤثر على السلوك، ويجب أن يكون ضمن حدود الأدب، لا يحيد عنه قيد أنملة، فالميل فيه تحطيم لأخلاقيات الأمانة، والغش فيه قاتل لثقافة أمة بحالها، فعلى من يجد بنفسه القدرة على التعبير الكتابي والتعبير اللفظي، أنْ يكون مصدرًا للنور الأخلاقي، ويحاسب سلوكياته في كل المراحل، ليثبت أنه

جدير بالأخلاق والأدب"

جاء في التوراة ردًا على بني إسرائيل:(كَيْفَ تَقُولُونَ: نَحْنُ حُكَمَاءُ وَشَرِيعَةُ الرَّبِّ مَعَنَا؟ حَقًّا إِنَّهُ إِلَى الْكَذِبِ حَوَّلَهَا قَلَمُ الْكَتَبَةِ الْكَاذِبُ.)

الكاتب الكاذب إذن هو الذي يحرف الحقائق لمصالحه أو لمصالح سيده، لا يقل جرمًا عن أي مجرم آخر، سواء كانت تلك الحقائق التي يقوم بتحريفها دينية أو سياسية أو اقتصادية أو عسكرية أو غيرها، فالنتائج الوخيمة التي تترتب على "القلم الكاذب" ربما تتعدى في خطورتها محيط ذلك القلم، بل تصل وتمس حياة أشخاص في أماكن أبعد مما يتصور، وربما في أزمنة لاحقة تضرر من فيها من كذبة قلم قبل مجيئهم للحياة أصلاً.!

ألا إن الأقلام أنواع كثيرة، لكن أخبثها قلم ثرثار لا ضمير لصاحبه ولا خلق ولا دين، فهو متفيهق يكتب قبل أن يفكر، ويرمي قبل أن يبصر، ويتهم قبل أن يتبين، ويكذب قبل أن يتحرى، هو قلم تجرد من كل معالم الشرف والنزاهة، والإيمان الوافر بالقيم والانسانية والصدق والمصداقية.

أما القلم الحر الشريف النزيه، فهو على الخلاف تمامًا من هذا القلم، الذي يجلب العار لصاحبه في الدنيا والاخرة، فهو قلم يخشى الله ويرتقب عذاب الضمير، ولا يدرك خطورة الكلمة،

ووقعها بين البشر، ولا تبتلى الأمة بمثل هؤلاء الكتاب الفجرة الحقراء، الذين جعلوا من أقلامهم عاهرة تُستأجر، ومطية يركبها من يدفع أكثر، فهي مأجورة مُسلطة، لا تخدم الحق والحقيقة، ولكن تخدم الأهواء والباطل والزيف والبهتان.

«إن القلم أمانة، والذي يحمله يجب ألا يكون ظلومًا جهولا غشاشًا ومنافقًا، يسير في كل المواكب، ويجلس على كل الموائد، لابد أن يكون صاحب القلم متصفًا بالعدالة والإنصاف والفهم الدقيق السليم، متحررًا من الهوى والتدليس والتلبيس، والتهويش والتشويش، وإذا كان الناس يكبون في النار على وجوههم، لحصائد ألسنتهم، واللسان يموت بموت صاحبه، فما بالكم بالقلم، وما يسطر القلم.؟ فاللسان يموت، والقلم لا يموت.!»

(وهناك كتاب وصحفيون عظام، سجلوا أسماءهم بأحرف من نور في سجلات الشرف والمجد والإباء، لا يكتبون إلا ما تُمليه عليهم ضمائرهم الحية اليقظة، لا ينتظرون التعليمات، ولا يخضعون للتوصيات، ولا يستجيبون للإملاءات، ولا يسجدون للدولارات، ولا يلهثون وراء المناصب والألقاب، هؤلاء احترموا رسالة القلم ومكانته السامقة، ولم يغشوا قراءهم، ولم يخدعوا مجتمعاتهم، ولم يبيعوا مداد قلمهم لمن يدفع أكثر.. أما النوع الآخر وهم « الكتبة» فهم مجرد موظفي

أرشيف يسجلون البيانات، وينفذون التعليمات، وينتظرون التوصيات، هؤلاء هم مرتزقة كل نظام، وخدمة كل فرعون، وحاشية كل سلطة، هؤلاء أساءوا للقلم ولرسالته ومكانته، انقلبوا على مواقفهم ومبادئهم السابقة، كما ينقلب الليل على النهار، باعوا كل شيء بثمن بخس مقابل حفنة من المال الزائل، إن القلم سيظل مكرمًا لأن الله عز وجل أكرمه، ورفع من قدره وعظمه عندما ما أقسم به، وخاب وخسر من باع قلمه، وتخلى عن شرفه وكرامته وحط من قدره، لا أسوأ من خيانة القلم، لأن السيف الغادر قد يقتل أفرادًا، أما القلم فقد يقتل أممًا)

(وما أكثر من نشروا بالقلم الخير المديد، وأيضًا هناك من تجاوزت أقلامهم الخطوط الحمراء، فعاثوا فسادا في بحور الظلام، يمالئون ظالمًا ويبررون منكرًا ويداهنون فاجرًا، ويقلبون بمعسول كتاباتهم الحق باطلا.. فكم رفع القلم أناسًا ووضع آخرين.

أتعجب من صولة الذئاب، واشتداد عواؤها تحت مظلة الحرية والديمقراطية والليبرالية.. وهي في الحقيقة إباحية وانحلال وهدم لصروح القيم النبيلة، والثوابت الجليلة، قاموا وقعدوا، وأرغوا وأزبدوا، وخبوا ووضعوا، وأجلبوا بخيلهم ورجلهم، وشمروا واستنفروا؛ فكتبوا ونعقوا ونهقوا، فتارة يلوحون، وتارة يصرحون؛ فلا تخلو كتاباتهم من انتقاد واعتراض على

حق، أو إقرار لباطل، أو بث شبهات وشهوات، وألصقوا التهم وعمموا الأحكام.. أتعجب من أصحاب الأقلام المأجورة، باعة المبادئ، الذين باعوا أقلامهم بحفنة من عرض رخيص زائل، وسطروا من الفجور والضلال والنفاق ما إن مزج بماء البحر لمزجه خبثا ونتنا وعفنا، قد جندوا أنفسهم لهدم المجتمعات وبث بذور الشر والفساد، وتدعيم الدكتاتوريات بدلا عن الحريات)

هل تتخيل أن يكون هذا الكاتب الذي يمسك بالقلم والذي يتوقع له أن يكون أرقى إنسان وأسمى مخلوق، أن يكون لصًا حقيرًا يشبه تمامًا ولا يختلف عن قطاع الطرق والبلطجية والمجرمين والفتوات الذين يفرضون إتاوة وضريبة على الضعفاء من الناس؟!

في إحدى القهاوي القريبة من مكاتب المحررين في العتبة الخضراء بالقاهرة، كان يجلس عباس محمود العقاد ليتناول غداءه، ويلتقي بعده بزملائه الصحفيين والأدباء، ويحضر مجالسهم ومحاوراتهم، ويستمع إلى مناورات المحررين، وما يحصلونه من إتاوات! نعم إتاوات كلتك التي يفرضها الفتوات والبلطجية والطغاة على الضعفاء، وكان المحرر وقتها يستطيع أن يكتب مقالين متناقضين في وقت واحد، إحداهما للمدح والأخرى للذم، ولا يعجزه هذا الأمر ولا يجد فيه أي

غضاضة.!

يذكر الأستاذ العقاد قصة محرر من هؤلاء، لا ضمير له ولا قيم، حيث جعل من قلمه مادة يبتز بها الأثرياء، وسلاحًا يهددهم ليسرق منهم أموالهم بغير حق، ولا يجد الأثرياء أمام هذا الابتزاز الرخيص، إلا أن يستجيبوا حتى لا يعرضوا أنفسهم للسمعة السيئة، التي يجرها عليهم قلم هذا النذل الحقير..

يقول العقاد رأيت صاحب صحيفة من أشهر الصحف الأسبوعية في أيامها يجلس إلى مائدة أحد المحررين، ويطلب منه كتابة مقالين مستعجلين، إحداهما تثني على ثري معروف من أصحاب القصور الباذخة على مقربة من حي عابدين، لأنه يثابر على عمل البر وإسداء المعونة إلى الجمعيات الخيرية، ويُصلح المساجد التي تجاور قصره، ويطعم الفقراء الذين يترددون على تلك المساجد لوجه الله تعالى، وينحي في المقال الثاني على ذلك الثري نفسه، بأنه مبتذل العرض والكرامة، يغرر بالأبرياء فيسوقونه إلى ساحة القضاء، ويطالبونه بالتعويض عما أصابهم به من الأدواء.!

وهكذا كان هناك بعض الكتاب والمحررين الذين يشبهون قطاع الطرق واللصوص، هكذا جعلوا من القلم كالمسدس أو المدية التي يحملها اللص قاطع الطريق، ليهدد بها الأمنين.

ما أروع هذا الكاتب الذي يحترم قلمه، ويدرك مسؤولية كلمته، ويربط بين نفسه وقلمه، فإذا كانت شريفة نزيهة، كان قلمه شريفًا نزيهًا، وإذا كانت سافلة متدنية، كان قلمه كذلك.

ما أروع هذا الكاتب الذي يتمسك بمبادئه وأخلاقه ليس أمام العواصف والضغوط والتهديدات، ولكن أمام الاغراءات المادية التي تعرض عليه وتستغل فقره ودينه وجوعه وحاجته، ثم هو أمامها يواجهها إلا بكل صلابة وإباء وشمم.. راسخًا صابرًا مجاهدًا محتسبًا.

إن أمتنا بكل فخر قدمت مثل هذه النماذج الرائعة من الكتاب الأبطال، أصحاب الأقلام الشريفة، الذين لم يسل لعابهم للمال أوترضخ نفوسهم لبريقه، أمام فقرها وقلة حيلتها، تماما كما نرى اليوم من كتاب كثيرين، لا يبيعون مبادئهم فقط من أجل المال، وإنما يبيعون شرفهم ودينهم، فما أبعن البون بين الفريقين وبين القلمين.!

(محمد فريد وجدي) الكاتب والمفكر الإسلامي الكبير، الذي ربما يجهله الكثيرون من أبناء الجيل الحالي، والذي كان رحمه الله نموذجا للإنسان الراقي والقلم المثالي، الذي يعلي القيم فوق كل شيء، ويعد الالتزام بالمبادئ أغلى ما في الحياة وأثمنها، والتي تهون وترخص إن هي تجردت من هذه المبادئ.

كان العقاد يرى نفسه محظوظًا لأنه عمل مع هذا الرائد الكبير وتشرف بالاقتراب منه، حينما أسس صحيفته (الدستور) ولم يكن العقاد بالرجل الذي يفوته أن يخبرنا بحقيقة هذا الرجل وسماته الطيبة الأنيقة الفريدة، حينما احتك به وعمل معه.

فكان مما وصفه به قوله: «كان حرًا في فكره، وما خالفته فيه أثناء عملي معه أكثر مما وافقته عليه، ولكنه لم يغير كلمة واحدة كتبتها لمخالفة رأيه، كان شديد الإيمان بالجامعة الإسلامية، ولم يكن كغيره من طلاب الكسب والجاه من وراء هذه الدعوة، بل كان يخسر الكثير في أحرج أوقات الحاجة إلى المال، ومن ذلك أنه رفض الاتفاق مع حزب تركيا الفتاة باعتبار الدستور لسان حال للحزب في سياسته العثمانية بعد أن تكفل بالإنفاق على الصحيفة وسداد ديونها، لأن الحزب كان يشترط أن ترفع من عنوان الصحيفة كلمة (لسان حال الجامعة الإسلامية) ولم تمض أسابيع حتى كان الرجل يبيع كتبه بثمن يضارع ثمن وزنها من الورق، ليؤدي مرتبات الموظفين والعمال.»

والحق أنه يمكن أن نقول: إننا أمام رجل رائع، صاحب خلق عال وعقلية سامية، ربما نسيه التاريخ، لكننا نعيد للوجود ذكره وسموه وأصالته وعفة نفسه، ونسجل هذه المواقف التي يضرب بها المثال في إباء النفس وعفة الخلق.! لقد كان من جميل كلامه رحمه الله :(إن الفكر أمانة وصاحب القلم ليس مخيرًا

دائمًا فيما يكتب، ولكنه يُفاجَأ أحيانا بما لا سبيل إلى السكوت عنه، فيحمل يراعه كما يحمل المجاهد في حومة القتال سلاحه)

من المهم جدًا ساعة الكتابة، أن تتذكر الأهداف النبيلة والغايات السامية وأنت تكتب، حتى لا يزل قلمك في غياهب الباطل، فتجعل منه خادمًا للأهواء، وناصرًا للباطل، وعدوًا للحقيقة، فما أتعس أن تكتب شيئًا يُغضب الله، أو تنافق بقلمك ومدادك سلطانًا أو رئيسًا، أو تستغل بيانه في طلب الدنيا والمنصب والمال، وأعرف أديبًا كبيرًا، سخر قلمه لعصبيته بعيدًا عن الحق والحقيقة والصدق والصواب، فأينما ذهب هواه ذهب معه قلمه، ينتصر لأهوائه وينافع عن عصبيته، فإذا خاصم هذا الحزب أو تركه، انقلب على من كان له نصيرا بالأمس، فصب عليه جام غضبه، وأظهر عيوبه ومساوئه، دون أن يتذكر ما كان منه بالأمس، ودون أن يعي أن هناك من سيلحظ تناقضه واختلاف قلمه، وتجرده من المبادئ وشرف الخصومة.!

الفهرس

المقدمة.....٥
خطورة القلم.....٩
الكاتب هو الأعظم.....٢٣
فن الكتابة.....٢٩
موهبة أم اكتساب؟.....٣٧
التشجيع على الكتابة.....٤٧
لماذا أكتب؟.....٥٥
ماذا نكتب؟.....٦٥
كيف تكتب؟.....٧٥
متى تكتب؟.....٨٧
وقود القلم.....٩٧
نضوب القلم.....١١١
طور أسلوبك.....١١٩

أعيدوا النظر فيما تكتبون!.....١٣١
جغرافيا الكتابة!.....١٤١
طقوس الكتابة.....١٤٩
تحديات تواجه الكاتب.....١٥٩
الأسلوب السهل.....١٧١
الأقلام المتقعرة.....١٨١
لصوص الفكر.....١٨٩
لا تتعجلوا التأليف.....١٩٧
الغيرة الإبداعية.....٢٠٥
أخلاق الكاتب.....٢١٥

لو عاوز تحقق حلمك وتنشر إبداعك وكل الناس
تقراه سواء شعر .. قصة .. رواية .. كتاب اتواصل
معانا وساعدنا نحقق معاك حلمك وحلمنا إن كل
مبدع يوصّل للناس إبداعه..

يوريكـــــــــــــــــــــــــــــــــــــا

حلّق خارج السرب

01288627690

eureka4publishing@gmail.com